العزيزة

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.alnokhoba.com

1441 هـ – 2019 م

رقم الإيداع: ** / 2019

الترقيم الدولي: ** – ** – 838 – 977 – 978

الكتاب: العزَيْزَة

المؤلف: راسم الحديثي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

العزيزة

روايتان

المخلوط السحري

ميساء - أم رميم

راسم الحديثي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

رواية

المخلوط السحري

المسكينة
فقدت عقلها

(1)

لم تبلغ الثلاثين بعد، ممشوقة القوام، حنطية، وجهها أجمل ما فيها، رداؤها الأسود يغطّي حتى قدميها، كانت عيناها السوداوان محدقتين بفضاءٍ لا حدود له.. فترفع يمناها عالياً، تهتف بكل ما أوتيت من قوّة، ولم تدخر شيئاً من عزيمتها: «لا اله إلا الله... محمد رسول الله».

تهتف وتصرخ، حدث جسيم حصل للتو.

تكررها وفي كل مرة يزداد صوتها شموخا، وزوجها يمسك بها محاولاً غلق فمها، فيرفع يده عالياً، تَمسك بها بقوة وتدفعها بعيداً، فيقترب أكثر.. يمد رقبته التى تشبه رقبة زرّافة، لاصقاً فمه بإذنها، هامساً بكلام لا يسمع ولا يفهم... يا ترى ماذا يقول لها؟ ولكنه ليس كهمس العشاق حين يلتقون بعد غياب.

الكمد والهم مخيم عليه، يعتري وجهه الشاحب، خجل ويأس وانهزام.

قضى ليالٍ على هذه الحال، ممسكاً بطفليه، ويقوم بواجبات زوجته.

حتى نزلت رحمة الرب، بعد أن دفع مبلغاً من المال لبعض الوسطاء، فحصل على موافقة العسكر مرفقاً بتقرير طبي من مستشفى حديثة،

موافقة القائد ولا أحد غيره، في هذا البلد لا أحد يخوّل أحداً!، مرضٌ قديم جديد، في بلدي الإدمان على الكرسي كالإدمان على الكوكائين.

نصحه الطبيب ألّا فائدة من بقائها هنا في مدينة محاصرة ومستشفى بلا أدوية ولا أطباء، هناك في العاصمة، في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.

وفي إحدى زوايا الكرفان، كان أستاذ محمود يقف على قدميه، وإلى جانبه زوجته وطفلته، لا يجوز أن يجلس على أرض قذرة.. مدير إعدادية حديثة منذ الستينيات ومشرف تربوي اختصاص في اللغة العربية، يقرض الشعر ويعربه ويفسره، يربطه بتاريخ وجغرافية الزمان والمكان، كأنك تشاهد فيلمًا بالألوان أمامك، تخرّج في كلية التربية بامتياز حين كانت تسمى دار المعلمين العالية، وهناك كان يتقدم الصفوف مطالبا بالاستقلال، كان يعتقد أن الأمر سهلٌ، كان يعدني أن مستقبلاً زاهراً ينتظرنا.

صمد طويلاً واقفاً، ولكن ساقيه تؤلمانه، تهتز مثل سعفة في مهب ريح، ترتجف مثل كرسي أجهدت أرجله، تجاعيد وجهه تخبرنا، حتى استسلم أخيراً، تحدثت عيناه، ففهمت زوجته الأمر، أسرعت فأخرجت قطعة قماش من الحقيبة، ففرشتها على قاع الكرفان، فرمى نفسه عليها، متمدّداً على طوله، مختلساً النظرات، محاولاً فهم ما حصل لهذه المسكينة.

وفي الزاوية اليمنى من الكرفان، كان رجل دين واقفاً وإلى جانبه زوجه المنفوخة بطنها، متهدلة، مدلوقة، المرأة مريضة بالتأكيد، بادرتْ وسألتْ الرجل الممسك بزوجته: «ما بها؟»

أجابها زوجها رجل الدين قائلاً: «جنٌ تلبّسها، دخل جسدها، القرآن علاجها».

ملت المرأة من جواب زوجها وتدخلّه في ما لا يعنيه فقالت: «من قال لك؟ أترك الجواب لزوجها؟».

قال الشيخ قدورى وهو يعدّل بيديه جبته التي اتسعت عليه هذه الأيام: «هذا عملنا، اخترقها الجن من أسفل رقبتها، من بين الكتفين، من التمزّق الحاصل في ردائها، قدَّ من دبرٍ».

حينها اخترق حاجز الصمت، صوت زوج تلك الشابة قائلاً بغضب: «لا يا شيخ، رداؤها تعلق بباب سيارة رزوقي، فتمزق.. لا قدّ من دبرٍ، ولا من قبلٍ!».

تدخل أستاذ محمود محاولاً تخفيف حدة الحوار بسبب تحليلات الشيخ قدوري سائلاً: «ما بها إذن؟».

أجاب زوجها بحدة أقل: حاولت منعي من حمل السلاح لمقاتلة داعش، تخاف من بقائها لوحدها مع الأطفال، تخاف الليل أكثر، فلا تنام حتى أعود من واجبي، فأجدها متصلبة صارخة: لا إله الا الله.

وفي ليلة مظلمة دامسة، من دون كهرباء، قنابل، إنفجارات، دوّت صافرة الإنذار، وامتلأت المدينة بالعفاريت، فلبستُ ملابسي على الفور وحملت سلاحي.

حاولتْ اقناعي أن لا أخرج بتلك الليلة. جَلستْ على ركبتيها، احتضنتْ ساقيَّ، قَبّلتها، لا فائدة.. دفعتُها بقوة، فسقطت ولكنها تمسكت هاتفة (لا اله إلّا الله.....).

خرجتُ أركض باتجاه الساتر، كانت ليلة مخيفة، جمعوا كل ما لديهم من غضب.. قنابل.. قنّاصين.. مفخخات..... أحزمة ناسفة..

اشتعلت السماء واحترقت الأرض، نار جهنم، صراخ وعويل، هنا قتيل وهناك جريح.. هذا يريد الانسحاب، وذاك يرفض.

هكذا تحدث زوجها المسكين وهو يتصبّب عرقاً، قميصه الأزرق الفاتح أصبح رطباً حتى انبعثت رائحة من تحت أبطيه، وبالفعل حصل هذا حتى ارتوت أرض المعركة بسائل وردي لزج، قد تزهر يوماً أوراداً دموية، وفي غَبش الصبح حطّت المعركة أوزارها بانسحابهم.

- «أكمل حديثك يا رجل؟» طلب منه أستاذ محمود.

- «رجعت للبيت متعبا، أسحب نفسي بصعوبة، وجدتها جالسة كما ودعتها، كما ودعتني، تَنشد، (لا اله الا الله....)».

ابتسمتُ لها، ضْحكتُ، تكلّمتُ... كيف انتصرنا... لكنّها كانت بعالم آخر، بكوكب آخر، عيونها تحدق بالسماء ثابتة لا ترمش.

نقلتها للمستشفى، نامت تحت تأثير إبرة مخدّرة، ساعة أو أكثر حتى استفاقت قوية شرسة صارخة بما اعتادت عليه.

حينها قال الطبيب: «لا فائدة من بقائها هنا»..

(2)

وفي الكرفان أيضاً...

لهيب الشمس أشعل السماء والأرض وما بينهما، ولفح كل ما تكدّس من غبار ذاك التاريخ كلّه، حب، كره، صراخ، قتل، لتمتزج هذه الصور معا مولدة شكلاً لا يُفهم، لا يُقرأ، ولا يُرسم.

وعلى التل أيضاً...

أشباح تسربلت بأشعة الشمس، حولتها إلى أدمغة فارغة، مجوفة، جماجم من دون لحم، صمت لم يعد بالإمكان سماعه، يشبه الموت.

رؤوس لم ترحمها هذه الحرارة...

رؤوس ملتهبة تخرج منها نار جهنم...

ورؤوس أينعت فحان قطافها...

وفي الكرفان وعلى التل تسمع همهمات دعاء.

الجميع يصبون للوصول إلى بغداد، خططوا من زمان، من زمن القهر والقحط والحصار والنسيان، للوصول إلى بغداد، بغداد الحضارات، عاصمة الرشيد، «أبو نواس».

انكفأت كل الرؤوس هنا، في مدخل قاعدة عين الأسد الجوية، فظهر فجأة ضابط كبير، كبير بنياشينه الذهبية المتراقصة على كتفيه.

فتدحرجت بعض الرؤوس من التل المحروق فسألوه: «ما القصة؟ الساعة الثانية ظهراً، نحن هنا منذ الفجر، استفقنا على هذا الحلم منذ صلاة الصبح».

أجابنا من دون اكتراث وبكل برود: «القائد يرفض».

– «لدينا موافقات أصولية وتقارير طبية لمراجعة أطباء اختصاص في العاصمة».

أجاب: «أَقسمَ اللواء الركن ألّا أحد يضع طيزه في قاع الطائرة».

– «السبب؟».

– «لا أحد يدري!».

هالنا ما سمعنا.. هالنا أن كل الطرق المؤدية إلى العاصمة مغلقة.

سألناه:»هل اللواء الركن داخل القاعدة»؟

– «نعم لديه اجتماع مهم!».

سألته أنا: «لماذا لا يزور الكرفان؟».

هنا أستاذ محمود، هنا التاريخ، تتلمذ في أول مدرسة هنا، في مقدمة حويجة الحديثة، الحويجة التي بناها اليزد شير الفارسي، وسكنها القائم بأمر الله العباسي، تشق عباب نهر الفرات نحو الشمال.

شارك أستاذ محمود في مظاهرات بغداد هاتفًا مع الهاتفين

الموت للاستعمار!!

حتى أصبح مدرساً للغة العربية ومشرفاً/ معلماً للطلاب والمدرسين.

(قم للمعلم وفّه التبجيلا.... كاد المعلم أن يكون رسولا)

وهنا أيضا هذه الشابة، حصل لها ما حصل بسبب تَعلقها بزوجها، بأطفالها، بستر بيتها.

وهنا الزوجة منفوخة البطن، تتألم من دون ألم، من دون حسرة ومن دون دمعة

وهنا رجل الدين الشيخ قدوري، خطيب جامع، يجتمع حوله مئات في كل جمعة.

وهنا على التل المحروق، شباب صابرون صامدون، أمسوا لا يرون غير سحب السماء الساخنة وهي تكاد تطبق عليهم بجبروتها.

هؤلاء جميعًا أهل هذه المدينة التي تسبح كسمكة بلورية تنثر أشعّتها الوردية في فضاء هذا البحر الأسود الذي يغمر كل المنطقة الغربية.

هؤلاء جميعا كانوا سبب ثروتك أيها اللواء الركن وما تملك..

هؤلاء جميعا كانوا سبب وجود هذا السبلت الذي يلسع ظهرك.

كل الوجوه مرتاعة، العودة من حيث أتوا تتكرر كثيراً، تميزت تلك الوجوه بعظام بارزة في الوجنتين، عيون غائرة، رجيم قسري مفروض

على الجميع، على المدينة ومن يسكنها، مدينة كافرة مرتدة، وكأننا في حروب الردة قبل أكثر من ألف عام لكنها بين المؤمنين... مفارقة!!!.

وبعد ما سمعوا من الضابط أن سفرهم إلى بغداد اليوم مستحيل، أخرج كل منهم ما لديه من قطع خبز صغيرة وبقايا خضرة، أكلوا بنهمٍ وكأنهم ضاعوا من زمان في جزيرة مجهولة وسط بحر.

تنهّد بحزن أستاذ محمود قائلا:» كم أنت عظيم يا ماركيز حين قلت» في الجوع.. لا يوجد خبز سيء».

التفت إلى رجل الدين حين سأله ذاك مندهشاً: «من هو ماركيز هذا؟، لم أسمع به من قبل!».

أجابه الأستاذ: روائي شهير، قرأتها له في روايته «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه».

قال رجل الدين ممتعضاً: «هو غير مسلم!».

أجابه أستاذ محمود بسرعة بديهية: «الحكمة ضالة المؤمن، هذا قول نبي الإسلام».

فعاد الصمت ممزوجاً بصرير قطع الخبز اليابسة بين الأسنان سيد الموقف..

(3)

هاهو بيكب رزوقي.. كيف عاد؟ لماذا عاد؟ أسئلة لا داعى لها.

كل سحب ما لديه، كل أمسك بمريضه، يريده أن يسرع إلى بيكب رزوقي..

الشباب تدحرجوا من قمة التل، تكدّسوا في خلفية البيكب، تلسع مؤخرة كل منهم نار حامية، معدنها يشع حرارة، قطعة جمر، لا يهم.. المهم وجدوا واسطة نقل، من دونها موت مؤكد هناك على التل.

أستاذ محمود وزوجته وطفلته والمرأة المنفوخة وزوجها رجل الدين وأنا والشابة التى تهتف وزوجها، في المقدمة جلسنا، على كشن السيارة وفوقنا سقفها، وشباب التل تكدّسوا في حوض البيكب تحت أشعة الشمس.

قال رزوقي:» حدسي أخبرني أَنتمْ هون، ما يسمحْ القائد الجديد بمدني يطير حتى لو كان مريض، هوَّ شديد جدا!».

لا أحد يتكلم.. صمت لا حدود له.. كل يبحر في خيال لا يعرف مداه، يخترق هذا الصمت الثقيل المخيم على المشهد كله، صوت تلك الشابة الهاتفة ومن دون مقاومة زوجها (لا اله إلّا الله...).

العزيزة(*)

(1)

«وصْلنا قاعدة عين الأسد الجوية، الحمد لله على سلامتكم»

هذا ما قاله سائق البيكب رزوقي وهو يدير رأسه باتجاه أستاذ محمود.

هكذا وصلناها في الساعة السابعة والنصف صباح هذا اليوم، كانت ليلة قلقة، الخوف من إلغاء السفرة أو قطع الطريق من قبل العسكر حالة حاضرة.

سيطرة حديثة تفتح في الساعة السابعة صباحاً، وعجلة كاسحة الألغام حاضرة لتتقدم السيارات المتجهة إلى القاعدة الجوية للهروب من حصار حديثة الجائر.

تحركنا مخترقين الحقول والبيوت على جهتنا اليسرى، وصحراء قاحلة بعيدة بعمقها على الجهة اليمنى، العرق يتصبب من أجسادنا منذ الصباح، ننطلق بخطى غير متئدة خلف كاسحة الألغام مشرئبين بأبصارنا باتجاه البغدادي والقاعدة الجوية.

في مقدمة بيكب رزوقي وإلى جنبه أستاذ محمود وزوجته وابنته الصغيرة في حضن أمها، وخلفهم أنا ورجل الدين الشيخ قدوري

(*) العزَيْزَة: عظمة رأسها مفصل على شكل بيضوي يشبه قوام المرأة، لها حكايات فى التراث ..أن رميها فى بيت ، بعد تزويقها بالألوان، يسبب الفتن والمشاكل والخصام

وزوجته وشاب يمسك بقوة زوجته التي تنظر بعينين محدقتين بفضاء لا حدود له، وفي حوض البيكب شباب يتكدس بعضهم فوق بعض، هذا موظف وذاك عاطل وذاك تاجر....

وعلى طول الطريق نقاط عسكرية هنا وهناك، وجنود يتأبّطون بنادقهم وخلفهم غرف صغيرة بنيت بأكياس ترابية وسقوف معدنية، طريق خال من الحياة غير بعض من الحيوانات السائبة على الأرض والطيور المحلقة في السماء.

حين وصل بيكب رزوقي أرض القاعدة، بعد أن قطع مسافة ثلاثين كيلومتراً، حدق إليها أستاذ محمود بنظرة مغالية، وغاب في صمت لحظات وكأنه يختزل زمناً وتاريخاً مثقلاً بالهموم ومحمّلاً بالانكسارات، انثالت عليه الأفكار متسارعة، كل شيء كان فيه يرتعش، حتى إنثيالاته، ولكنه دمدم أخيرًا:

«قضيت عمري أناضل للتخلص من هؤلاء،، ويبدو لبسونا ثوبًا وتلبسونا جسدا كما تتلبس الشياطين أجساد البشر، رشت طائراتهم قنابل الموت كما تُرش الحلوى في الأفراح!».

أجبته:

«لكنهم خلّصونا من الدكتاتورية البغيضة ! وسوف ينقذوننا اليوم من حصار داعش بطائراتهم التي تأخذنا إلى العاصمة بغداد».

تابع أستاذ محمود: «نعم، وزرعوا (العزَيْزَة) بين ظهرانينا».

سألته: «ما هي العزَيْزَة يا أستاذ محمود؟»

أجاب بلغته العربية الفصحى المرتعشة: «تجعل الأخ يقتل أخاه، والجار يهّجر جاره، والزوج يطلّق زوجته، والابن يعصي والديه».

سألته مداعباً: «هل هذا كلّه من صنع الأمريكان؟».

أجاب وقد احتقنت أوداجه حد الانتفاخ: «إنها العزَيْزَة» وأضاف: «والقادم أفظع!».

وحين ترجّلنا من بيكب رزوقي، أمسكت بيمناه وأمسكت زوجته بيسراه، وبيسراها أمسكت ابنتها التي لم تبلغ سن الدراسة بعد، وهي فرحة بسفرها إلى العاصمة وبتنّورتها القصيرة ذات الألوان الزاهية، وبيدها اليمنى تمسك بطرف حقيبة بنفسجيّة اللون تحوي احتياجات سفرة طويلة، أما والدتها فتظهر على ملامحها ابتسامة هادئة مناسبة لردائها الأزرق الفاتح ذي الأكمام المطرزة باللونين الأبيض والأزرق، وحجاب الرأس الأبيض بنقاط صفراء كثيفة، هي تنتظر هذا اليوم بشغف لمعالجة زوجها لدى طبيب مختص، أستاذ محمود، أبو شكري، المدينة محاصرة، من دون غذاء ولا دواء، أهلها كفرة!!.

كل شيءٍ فيه كان يرتعش حتى مخيلته، ببذلته السوداء قديمة الموديل وربطة عنقه المطرزة باللونين الأسود والأحمر، وحذائه الأسود قديم الطلاء، يسير باتجاههم مكسوراً مكوّراً، صخرة كبيرة تجثم في معدته، انتظر سنين طويلة تناهز الستين سنة كي تتحقق أحلامه الغائبة، ولا زال ينتظر بيأس.

قلت له أستاذ محمود: «أرفع رأسك، كن منتصباً كالعمود..كما عهدناك».

تكوّر أكثر، فتداعت قطرات عينيه، ولم يعد باستطاعته إدراكها أو إخفاءها، باب القاعدة موصد والى جانبه غرفة كونكريتية، يقطنها جنود مثقلون بأسلحتهم، وبإشارة آمرة من أحدهم:

«الشباب يصعدون ذاك التل، والمرضى وكبار السن يدخلون ذاك الكرفان».

تفرق جمعنا.....

كل من كان في حوض البيكب تسلق التل المسكون بالغبار وبشمس شرسة يزداد أوارها. أنا وأستاذ محمود ورجل الدين وزوجه المنتفخة بطنها، والمرأة الهاتفة وزوجها، اتجهنا إلى الكرفان ودخلناه، ابتهجنا، غمرتنا الغبطة، كرفان جميل يصلح لبضع حيوانات أليفة، صغير وقد

تقوست بعض جدرانه، في السقف وفي الزاوية اليسرى شق طولي ملتو وكأن صخرة كبيرة سقطت عليه من السماء، ومن خلاله تنسكب أشعة الشمس على قاعه، ولكننا تميزنا عن الذين تسلقوا التل.

طائرة تطير وأخرى تحط، انفجارات هنا وهناك، إطلاقات بعيدة وغيرها قريبة، من يسلك طريق حديثة- بغدادي اليوم؟ طريق الموت.. «درب الصد لا رد».. دكاكين فارغة فُتّحت أبوابها عنوة، بيوت مهجورة، طريق مزروع بحفر الموت، جنود مسمّرون قلقون، نحن في أواسط تموز من عام 2015، الشمس تحرق الأرض، مرَّ على هذا اليوم ثلاثة عشر عاماً من إسقاط الدكتاتور ونحن بانتظار الأمن والتطور والديمقراطية!.

ولكن رزوقي يتحدث للجميع، عسكر ومسافرين، ذاهبًا آيباً، مهوّناً الأمر بأن القادم أفضل فيقول مبتسماّ ماسكاً لحيته الكثة:

- «كانْ أجملْ طريقْ.... طريق السواح، طريق السابحين بنهره الجميل، مطاعم السمك (المزكوف)،.. ما أطيبْ كباب البغدادي وما أطيبْ تشريبها».

ثم يضيف مؤشراً بيديه:

«تْعودْ حتماً الأيام الحلوة ويْعودْ كل من هَربْ من جحيم البغدادي وهذا البلد المسكون اليْوْم بالشياطين»....

يقرأ رزوقي عديد الآيات القرآنية، آيات يختارها بعناية وبدقة، تشير إلى الأمن والأمان، وإلى المحبة والوئام، تحفظ ركابه من كل سوء، ويقص لهم عديداً من القصص، كيف ساعده الله بتجاوز ألغام عصيّة وخفية على خبرائها، وكيف أخطا أفضل قناصيهم في اصطياده.

يسلك هذا الدرب أكثر من مرة في اليوم، يبحر به بعد كاسحة الألغام التي تسلكه كل صباح، سائق الكاسحة ينظر إلى رزوقي مبتسماً من خلال مرآة الكاسحة.

يتحدث الجنود كثيراً عن رزوقي، يراقبونه حين يذهب وحين يعود ببيكبه الرصاصي التعبان الذي يعمل على الكاز أويل، يمسكون به، لكي يشعروا أن حياةً هنا، رزوقي هو مدينة حديثة بقضّها وقضيضها، يسحبونه بالقوة ليتحدث لهم عن هذه المدينة، أحاديث ترسم البسمة الغائبة من زمان، يقص لهم عديد القصص.

يجلس رزوقي على الأرض، بعد أن يضع حذاءه الرصاصي التعبان خارج السقيفة، يلف دشداشته الواسعة الزرقاء في حضنه، ومسبحته المائة وواحد خرزة تلازمه، ويفتح قدر (الدولمة) الذي طبخته زوجته بشّق الأنفس، لم تكن كما في الأمس بسبب الحصار الجائر، تنتقل

هذه المدينة من حصار إلى حصار، منذ أحداًث احتلال الكويت حتى هذا اليوم، من حصار أمريكي إلى حصار أمريكي الجوهر برداء متنوع الألوان، يأكلون (الدولمة) بنهم ويطلبون منه الاستمرار بحديثه الشيق وهو يلوي فكيه ويعيد لكي يفهموا اللهجة الحديثية الغريبة التي لا تشبهها لهجة في هذا البلد، ويستمر بحديثه: «أعتذر منكم، (الدولمة) ما بْيها لَحم، فقط تمّن ملفوف بورق العْريش، تْعرْفون ظروفنا».

يسأله الجندي جعفر ضاحكاً: «سولفنا عن حديثة أيام زمان؟».

يسترسل في كلامه وبلهجته:

– «مدينتْنا تاريخية، يمتدْ عمرْها إلى ما قبل الإسلام، هْناك كنيسة لا تزال قائمة بشرق حويجة الحديتة، حوّلها الزمن إلى جامع، وهْناك قبور ما زالت علوها قطع حجرية تشبه الصلبان.

«واليهود سْكنوا هون في منطقة السوسة ووادي حوران وحويجة الحديثة ودوال اليهود، ولا يزال أهل حديثة يتندّرون بحكايات أسحاق الذي سكن حويجة الحديثة، حتى غادروها بأحداث 1948، قصصْ تْبَكّي الحجر....

آآآه من هذا البلد المظلوم».

وتظهر عليه الغبطة ويرتفع صوته مع يده اليمنى قائلاً:

من هون مرَّ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هو وجيشه وعْبرَوا الفرات من مدينة عانة، باتجاه الشام لمقاتلة الأمويين.

فيسأله الجندي جعفر مستغرباً:» من هنا مرَّ علي (عليه السلام)؟

فيجيبه بثقة: «نعم من هون».

ثم يقف مشيراً بكلتا يديه ويضيف:

- «بمحطة النفط (كي ثري) يسكن المسيحي والمسلم والكردي والتركماني، أسماء ما ننساها، تعيش بعقولنا، (حسن سينما و عيسى بلوندي و حسين كمبوز وحميد نايلون)، ألقابهم تدل على أعمالهم في الشركة، السينما وجدت هون قبل العاصمة، روّادها ذكور وأناث، النوادي تملأ كل حديثة والألعاب تعال وشوف (كونكان وبوكر ودومنة ودنبلة والبليارد والمشروبات بأنواعها، وملعب الكولف)، اليْوم اختلْفت الأمور، حكومة مسلمة، ذهب زمن ألماركسيين والقوميين والوطنيين، الآن نوادي بغداد تخدمها صبيات يلبسن بنطلون الجينز بالقوة !!».

يسترسل من دون توقف مغيراً جلسته فيمدد رجليه إلى أمام، وأصبعاه تداعب خرزات مسبحته:

«آآه يا زمن، والله شعلتوا قلوبنا من القهر، إميلدا الله يرحمها أيام زمان كانت أحسن قابلة، ألف رحمة عليها، ماكو أمرأة ما تعرف

أميلدا، مسيحية أمية ولكنها مولّدة نساء من الدرجة الأولى، المصور نيازي والخياط حميد، وكاكة حمة، السيارات تنقل طلاب المدارس والعمال من كي ثري لمكاناتهم، والمي الساخن يمر بكْل دور محطة نفط كي ثري بالشتاء وما يحتاجون إلى الصوبة، ومي بارد بالصيف وما يحتاجون أجهزة تبريد.... شنو حصل بهذا البلد وين راح نوصل، خلتنا العزَيْزَة «ما أحّد يْطيقْ أحّد، البصرة تريد تنفصل والأنبار يريد ينفصل والشمال يريد ينفصل، وطلاق النسوان شغل المحاكم اليوم والعوانس تملي البيوت».

يحلو الحديث ويسمو، لكنه يتبعثر، وهنا تكمن جمالية السرد، عندما لا يعتقل بأصول السرد، إذ يكون في فضاء رحب، تُحدث نفسك قبل أن تنام، تُحدث أصدقاءك وأنت ممسك بقدح شاي، أما سرد من تحب وتهوى فينفذ كالبلّور من مركز القلب مخترقاً شغافه، معلناً عن نفسه شامخاً كالطود عارياً محلقاً في فضاء الخيال.

يخترق سكون هذا الوقت سؤال أحد الجنود من مدينة العمارة:

شنو القصة أَشو ما كو قنص اليوم.

يجيبه رزوقي ضاحكاً فاتحاً فمه بكل ما أوتي من قوة: «يمكن اليوم عطلة الدواعش».

يضحك الجميع، يسحب رزوقي أكثر من بطانية ويضعها تحت أبطه ويسند رأسه بيمناه بعد أن تخلص من حذائه، شمس صافية رائقة نصف حارة، يخفف من وطأتها صفيح الجينكو سقف هذه الغرفة الكونكريتية المغطى بطبقة طين وادي حوران، يتمدّد رزوقي بطوله الفارع، سأله الجندي ذاته، هل يوجد عمارتلي يسكن هنا؟

لم يتوقف رزوقي، ولم ينصت جيدًا لاستفساراتهم التي لم تنقطع، هم يريدون أن يعرفوا الكثير عن المنطقة، وهو يريد أن يعيد تأريخها كلّه ويجمعه في دماغه ولكنه لم يفلح، فيضطر إلى الانتقال من دون مناسبة من موضوع إلى آخر ويقول: «ولو كلامي مابي فايدة».

يتحدث وقد ألقى ساقه اليمنى فوق اليسرى، وعاش في الخيال، وأكثر من رمي أعقاب السجائر حوله:

«غَيرت محطة كيثري واقع المدينة، ومن دون مبالغة، نصف سكنتها مو حديثيي الأصل، ابن البصرة وابن العمارة وابن تل أسقف وبرطلّة ودهوك، أما الأديان والقوميات فحدث ولا حرج، حديثة كانت العراق كله من أقصى شماله حتى أقصى جنوبه».

هذا ما يود رزوقي الحديث عنه، محطة كيثري النفطية، فتخونه الذاكرة، هذه المحطة التي أسسها وبناها الانكليز لضخ النفط إلى حيفا وبعدها إلى طرابلس وبانياس. كان منتسبوها يعملون

كخلية نحل لإنتاج شهد، شهد لم يحلم العراقي أن يشمّه أو يراه بعد، يدخل المهندس فيمسح الماكنة بإصبعه فإذا شاهد أي تلون، يحاسب المسؤول هناك، المسؤول وعماله يصونون مكائن الديزل العملاقة، مولدات الكهرباء ودافعات النفط، هم لا يحتاجون لما نسميه اليوم الكهرباء الوطنية والوطنية منها براء، المولدات العملاقة تنتج ما يغطي حتى سكنة المحطة من الكهرباء ويفيض، عمال يقفون كالأصنام أمام مقاييس الحرارة والدهن والضغط، حماية الآلة شيء مقدس، ساعات الصيانة المبرمجة شيء مقدس، الأرقام اللازمة للحفاظ على الآلة تدوّن في كل ساعة، ويراقبها المهندس بداية كل صباح، يؤشر بالقلم الأحمر على ما يجب عمله، فيدور هذا السجل على أقسام المحطة لتنفيذ اللازم حسب التوجيهات المقدسة أيضاً.

ملا زبار، أمي لا يقرأ ولا يكتب، أبحر في صيانة وإصلاح أنابيب النفط العملاقة، يقود مجموعته ويجوب الصحراء من البيجي (K2) حتى الحدود السورية العراقية، وحتى الحدود الأردنية أيام الضخ إلى حيفا ويافا، تقدم زبار، لم يكن بحاجة إلى واسطة أو رشوة حتى أصبح مديراً لصيانة خطوط الأنابيب.

إطفاء كي ثري، من يجرؤ أن يدخن سجائر في محطة الضخ؟ ومن يجرؤ أن يدخل سيارة شخصية هناك؟، من يجرؤ أن يدخل المحطة بسيارة الشركة ولا يوجد في نهاية أنبوب الأكزوزت مانع اللهب؟، الإطفائيون لا ينامون الليل، معداتهم معرضة للفحص، مدير محطة الضخ هو الآمر الناهي هناك.

الفيري والبلوندي، تقعان على ضفاف نهر الفرات، الفيري هو عبّارة عائمة على سطح الماء، تنقل سيارات الشركة ومعدّاتها، والبلوندي ينقل كل المعدات والمنتسبين إلى الجهة الثانية من النهر وهم معلقون بأسلاك فوق سطح الماء، تلفرك.

مطار وطائرة مدنية، تنقل المنتسبين في الحالات اللازمة والضرورية، وتنقل موظفي الدرجة الأولى (الستاف) في إجازاتهم وتنقل المرضى الواجب نقلهم إلى المستشفيات، وتوصل كل من هؤلاء إلى مكانه، كركوك، موصل، بغداد وحتى بيروت.

ويبقى لموضوع الإعاشة دور أساسي في كل هذا، فوجبات الطعام المتميزة تقدم لموظفي الدرجة الأولى (الستاف)، تقسم الوجبة إلى مراحل، مرحلة أولى وهو السوب ثم الوجبة الرئيسية الدسمة تليها الحلويات والفاكهة وأخيراً الشاي، أما وجبة العشاء فموظف الدرجة

الأولى يطلب ما تشتهي نفسه (تكة، كباب، سكالوب، كبة، أو مشكل من كل هذه الأنواع).

والعمال لهم مطعمهم الخاص، فيتناول الجميع وجبة غداء جيدة، ولكنها ليست كما في مطعم الدرجة الأولى. أما الآن «تعال وشوف، تآكلت كل أنابيب النفط»

فلا تـرى مما سمعت شيئاً، ولا يستطيع أحـد أن يحاسب أحداً،..»حرية وديمقراطية...!!»

الضابط اليوم ينادي: «أبو جاسم تعال».

فيجيبه الشرطي:» صار أبو حسين».

غابت تحية أيّام زمان... كانت تهزّ الأرض هزّاً!!، رحمك الله الشرطي صبري العبدان، كان يَسحل أكبر رأس بالحبل خلف حصانه.

(2)

بلدنا عظيم...بلد الثورات والانقلابات....

دقت ساعة الصفر.....

بيان رقم 1.. (واعتصموا بحبل الله...) وتدق الأناشيد.. (الله أكبر فوق كيد المعتدي..)..أناشيد وطنية أشكال وأنواع، في قتل فيصل الثاني وعائلته، حتى الأطفال كانوا يرفعون أيديهم مستسلمين للثوار، لا تفيد هذه الأعراف البالية.. قتلوهم جميعا!!.

ويسحل الوصي عبدالإله بالشوارع، وتخرج الموصل عن بكرة أبيها مستقبلة ذاك الموصلي حاملا إصبعاً مقطوعاً من كف الوصي عبدالإله، ويأتي دور تمزيق نوري السعيد ووضع قضيبه في فمه.

ثم تدور العجلة ويستمر السحل بالشوارع برفاق الأمس عملاء عبد الناصر، وتنقلب الأمور ويصبح الشيوعي يريد حجرًا يختفي وراءه فلا يجد.

وبيان رقم واحد جديد... (الله أكبر...)، أناشيد وطنية جديدة، وتدور العجلة فيقتل الرفاق بعضهم... ثم بيان رقم واحد، وتسعة أشهر وتليها أخرى... ويدخل الشعر المعركة ويغادر الحب والحبيب:

(ولما سلكنا الدرب كنا نعلم... أن المشانق للعقيدة سلّم) !!

حتى وصلنا إلى الثورة البيضاء.. فلم تطل الأيام حتى أصبحت حمراء قانية صارخة، وعبرت جيوشنا الدول وبلعت دولاً.. (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى....)، كل حدث له آية قرآنية مناسبة، وهكذا دواليك...

حتى عام 1991، فاستفاق أهالي حديثة على دوي طائرات تورنيدو الإنكليزية وهي تحرق ما بنوه، فاحترقت كل الخزانات في كي ثري التي طاقتها الخزنية حوالي ثلاثة ملايين برميل من النفط، وهذا يعني في حالة توقفت كركوك عن الضخ لأي سبب، تستطيع كي ثري أن تديم عملية الضخ لثلاثة أيام متتالية.

المهندسون والعمال والفنيون والاطفائيون الأبطال، يجوبون المحطة ليل نهار، يعزلون هذا الخزان ويطفئون ذاك.

ثم بدأت مرحلة (يعمر الأخيار ما دمره الأشرار)، ويبلي منتسبوها بلاءً حسنًا في إعادة ما يمكن إعادته.

وتدور العجلة ولا تتوقف.

وعام 2003 يستيقظ أهالي حديثة على الطائرات الأمريكية تقذف بحممها فوق كي ثري فلم تبق على شيء، حتى الطوربينات الخمسة ذات الطاقة العالية تحولت إلى رماد.

واكتشفوا المكان السري للاطفائيين، وحولوه إلى رماد أيضاً، وقتل فيه أحد عشر إطفائياً.

وتوقفت المحطة حتى هذه الساعة ولا أمل لها في العودة كما كانت، المحطة التي تضخ النفط إلى بانياس وطرابلس والبصرة وأنشطة عديدة غيرها.

ولسوء الحظ أنا لا أزال مديرها، أنا الذي شم رائحة القدماء أمثال المهندس والمدير القدير جميل بولص الذي قتله الأشرار عام 1991وهو قادم من عمله في البصرة، وعشت بين الجدد الذين لم يدركوا الإخلاص والالتزام كيف كان، أصبتُ بمرض السكري، ومرض الكآبة...

(3)

نهض رزوقي... تمسكوا به... أجابهم: أُريد أرجعْ للقاعدة الجوية، أعتقد أستاذ محمود والجماعة مركبوهم بطائرة الحمل، مع السلامة.

- «الله ومحمد وعلي وياك». (أجاب الجنود بصوت واحد).

أجابهم ضاحكاً: «أريد أجرة مال ثلاثة».

وهكذا يغادر رزوقي من اعتادوا عليه واستأنسوا به، متابعاً من أوصلهم إلى القاعدة» القائد الجديد متشدد وقد لا يسمح لهم بالطيران!»

دماغ رزوقي محشو بما تحدث به، يأس وقنوط يخيمان عليه، هل يقوم بتهجير كل سكنة حديثة؟ ويبقى لوحده، ومن يهجره هو وأهله بعد أن يغادر الجميع؟ ثم هل ما يقوم به خيانة لمدينته وتاريخها القديم العريق؟

هل يجوز تهجير كل سكنة حديثة؟ حديثة.. كي ثري وسد حديثة وبحيرة حديثة ومصفى حديثة ومنشات الكهرباء، حديثة التي تغفو على ضفاف نهر الفرات.

ولكن لا ذنب له، هذا مصيرها ومصير العراق كله.

ألم يخبره أستاذ محمود أن هذا البلد زرعت فيه العزَيْزَة!

علم أخيرا الكثير عنها، تجعل البيت الواحد بيوتاً، فهي تبث الفتنة في العائلة الواحدة، وفي القبيلة الواحدة، وفي المدينة الواحدة، تجعل الناس سكارى وما هم بسكارى، يُقتل الإنسان على اسمه وعلى جنسيته وعلى دينه وعلى وظيفته، تغتصب النساء، وتسرق البيوت والمال العام والآثار، وتبور الأرض الزراعية، وتجف مياه النهرين وتموت الأحياء فيه.

العزَيْزَة تجعل النساء الـولّادات عاقرات، وتفشل حتى أطفال الأنابيب، وتتفنن في تهجير أهل البلد.

أين هرمز وداوود وأمير ودوريس وأحمد و حنان.. وسمير شاؤول؟

غادروا النهرين، هؤلاء الذين كان لهم السبق بوضع الحجر الأساس في هذا البلد، مزقوا أو احتفظوا بجنسية بلدهم الغالي واستبدلوها بجنسية بلدان لا تاريخ لهم فيها، ليعيشوا هناك كالإنسان الآلي، كلعبة تعمل على الزنبلك، على الريموت،، يكدّون ليل نهار من دون أن يحصلوا على شيء، هناك في الغربة يعطونك النقود في اليد اليمنى ويأخذونها باليد اليسرى! ضرائب، أقساط، تأمينات....

فيقضون عمرهم من دون أن يضعوا شيئاً في جيوبهم، هناك ذهبوا، أسماء دول ومدن لم يفكروا يوماً بها، ديترويت، أريزونا، كندا، هولندا، تفرقوا حتى أصبح لقاؤهم ببعضهم حلماً.

أما الذين بقوا هنا، لم تسعهم بيوتهم، استبدلوها بالخيم، يتسولون ولا أحد يلتفت إليهم، لا دولة ولا بشر، من يساعد من؟ نصف الشعب يمد يده للنصف الآخر، قائلاً: «والله أُمي مريضة وعندها عملية وأحنا مهجرين، من مال الله!!»:

كلام لا يؤثر على أحد، وتتحدث الناس عن شركات تستغل هؤلاء، توزعهم منذ الصباح الباكر، وتجمعهم في نهاية اليوم، يسلبون ما يجمعونه، مقابل قليل من طعام وسكن نتن.

اتفق الناس أن يفتشوا عن العزَيْزَة والتخلص منها، إذ لا حل من دون ذلك، أُجهدوا الليل والنهار، داروا حتى داخل الكهوف، فتشوا في أعماق النهرين، حتى اكتشفوا أنها لم تكن جديدة في هذا البلد، وكل الذي عمله المحتل هو إنعاشها (Refresh).

تأكد لهم وجودها منذ أيام كلكامش، واستفاد منها كثيراً، حكم شعبه بالحديد والنار، حتى الفتاة في ليلة عرسها، عليها أن تنام ليلة قبلها مع كلكامش، هو المخوّل بازالة القطعة الوردية الشفافة التي خلقها الله

في جسد كل البنات، ثم ترى زوجها فرحاً بما حصل لها مع الملك، تصوروا الجهد الذي يعانيه كل ليلة، ولكنه لا يتراجع.

موجودة من زمن نبوخذ نصر ونمت وكبرت، تصوروا ما حصل للحسين وأهله في هذا البلد، وتصوروا ما حصل لكل الخط الأول في تلك المرحلة، واستمر القتل حتى وصل إلى ما لا يتوقعه أحد، الأخ يقتل أخاه ويسممه، لكي لا يصبح بديلا عنه في القيادة.

وجاء العثمانيون، فلم يسمحوا لأي عراقي أن يحكم أية منطقة مهما كان صغرها ما عدا بعض الاستثناءات، لا يثقون به، العراقي عليه الإنظمام جبراً إلى الجندرمة، وجاء الصفويون..... وحتى جاء الانكليز يوماً لتخليصنا!.

كيف يمكن القضاء على العزَيْزَة إذن، نمت لها مواصفات عجيبة غريبة، لا تتناسل مثل البشر، لا تضطر أن تتكاثر ذكراً وأنثى لتعاني من مشاكل الزواج والذي قد يؤدي إلى الطلاق المنتشر هذه الأيام.

هي تتكاثر بالانشطار، وبالملايين، لها جدار هلامي شفاف، تعيش بالهواء ومن دونه.

هي تقاتل قدرات العراقيين في التكاثر، فلذلك تجد الرجال يقفون طوابير أمام الصيدليات خجلين.

يحني العراقي رأسه خجلا قائلاً: «عندك حباية زركة»؟

فيجيبه الصيدلاني معبّساً: «أي عندي أم الخمسين».

فيقول له: «دكتور، أُم الميّة لو تفيد لو متفيد».

وحتى النساء يقفن طوابير أمام العطارين ومحلات الأعشاب يطلبن منشطات، أزواجهن يتهمونهن بما حلَّ بهم، العملية أخذ وعطاء، تبادل قدرات، ليست مزاحاً.

لنعش في الماضي

(1)

لنعش في الماضي القريب قليلاً، لنسرح بذكرياته، نستذكره. ذكرني به أستاذ محود سألني: «هل نسيت كيف حررنا الأمريكان من الدكتاتورية في نهاية عام 2003 وما حصل لنا بعدها؟».

كنا حينها عائدين إلى حديثة في بيكب رزوقي..مطرودين، لم تنفعنا موافقة اللجنة العسكرية المشتركة في بغداد، ولا التقرير الطبي وتوقيع د.أياد مدير مستشفى حديثة، الذي يؤكد حاجتنا لطبيب اختصاص في العاصمة.

أجبته: «العزَيْزَة؟».

أجاب منكسراً: «نعم».

... ذلك الصباح الذي أوصلتُ به ولدي وزوجتي إلى مرآب طارئ للسيارات، لم يعد هناك مرآب كما من قبل، كانا ينويان السفر إلى بغداد، حصل هذا في 19 من تشرين الثاني عام 2005، أي قبل سنوات من حصار داعش لمدينتنا، انصّبت الشمس حينها بصعوبة بالغة لتنير

الطريق لي، مخترقة قطعاً متناثرة من غيوم سوداء وبنية، أوصلتهما إلى حيث ينتظرهما السائق «أياك يا ولدي أن تَغضب أمريكياً في كل السيطرات»..همستُ في أذنه وأنا أرتدي قناع الابتسامة الكئيبة التي تلاحقني كظلي أينما وليت.

عدتُ بسيارتي نوع شوفرليت زرقاء اللون، وأنا أبكي كطفل فقد أمه، كل شيء في المدينة ينبؤك بكارثة مرتقبة، كنت أحدث نفسي كما اعتدتُ، بطفلٍ يستجدي طوال اليوم في شمس حارقة أو شتاء قارص، بالقوة وبالفتوة التي تبتهج حين تهينكَ وتذلكَ، بشاب فاجأه مرض السرطان على حين غفلة، بشاب يتبادل الحب مع فتاته ويصطدم بالمقّربين منه وهم ينصبون له المكيدة تلو الأخرى حتى يستسلم حين يرى صرح حبه ينهار أمامه، بالحروب كيف يصنعها القائد ويموت فيها الفقراء وتترمّل النساء وتسيب الأطفال، وكيف تحدث عنها ميكافيلي قبل قرون نجهلها.

سألت ذاتي لمَ أتشائم من دون خلق الله، لماذا لا

أحلم بالسعادة، الخيالات متنوعة فيها الجميل وفيها القبيح.

فَرحتُ أسرح بذكريات جميلة، عشتها يوماً في مدينتي.....

وحين تشرق الشمس مبتسمة، روابي المدينة تصطبغ بلون وردي جميل، تنساب أشعة الشمس على سفوحها المزهوة بالأغنام وهي ترتع على عشبها الأخضر، وطيور تغرد بسمائها وتتفرّد بألوانها، وعلى جهتي نهر الفرات مزارات بقبب خضراء تحوم طيور الحمام على قببها، بنت أعشاشها هناك حالمة بأمنها...هناك كان تاريخها، مزار الشيخ حديد ومزار الشيخ محمد ومزار السيد علي ومزار خالد ابن الوليد...الخ.

وعلى الجسور الخشبية التي تربط الجهتين من النهر وفي هزيع الليل يرمي صيّادوا السمك شباكهم ليصطادوا الكثير منه بأنواعه وألوانه الزاهية، ينقل هذا السمك تجار مهرة إلى بغداد وباقي مدن العراق، سمك مدينتي سعره مرتفع، أسمه سمك حديثة.

هكذا بدأتُ.... أستذكر أياماً خلت.

هواء مدينتي يمتد غرباً طرياً قارصاً عابراً مزارع غناء، مدينتي حديقة أعالي الفرات بمدنها وقراها وسهولها وهي تغرق في غابات نخيل باسقة، أشجار الخوخ والمشمش والرمان والأعناب، حقول الخضرة التي تكاد تسد حاجة المدينة وتفيض، تمتدُ تلك الحقول غرباً عابرة مزار الشيخ حديد والذي حصل له هذه الأيام ما حصل لكل المزارات، فُجّرت قببها وهجرها سدنتها.

(2)

ابتعدتُ عن مرآب السيارات حوالي كيلومتر واحد، سمعتُ صوت انفجارٍ مدو، لم يبعد كثيراً، نظرتُ أمامي لأرى جنوداً أمريكان يركضون ويلهثون وبنادقهم تمتد أمامهم، انحرفت بسيارتي ودخلت ممراً فرعياً بالقرب من بيت الحاج حسين، ضغطتُ على دوّاسة البنزين كي أصل داري القريب.» الله الستار..يا رب سلّم ابني وزوجتي، أين حصل هذا الانفجار؟». لم أعد أحلم..الواقع أصدق من المتخيل.

وصلت الدار ودخلت مسرعاً وأغلقت الباب وتمدّدت على سريري، تناهى إلى سمعي أصوات رجال وزعيق نساء بصراخ غريب، بعيد، قلت «مالي!»، لكن الأصوات تحولت إلى ضجيج فما عدت أستطيع البقاء ساكناً، خرجت سيراً على الأقدام بذات الدّشداشة البيضاء التي ارتديتها صباحاً حين أوصلت سدير ووالدته إلى مرآب السيارات الوقتي، وانحرفت يساراً تاركاً الشوارع المعبّدة متسلّلاً بين الدور حتى وجدت جمعاً من البشر قرب دار صادق الغريري، تشجّعتُ فخفتْ ساقيا حتى دنوت منهم: «السلام عليكم، شنو القصة؟».

أجابني أحدهم: «انفجرتْ قنبلة تحت عربة أمريكية ومات ضابط أمريكي، بصَعدَة الحي العسكري».

«صراخ نسوان !»، سألته.

أجاب: دخلوا بيت الغريري وقتلوا أربعة من أولادهم، جمال وجاسب ومروان وقحطان، واعتقلوا الخامس.

«مصيبة، سمعت صوت الأنفجار!»

استرسل هذا:» الأمريكان ينتشرون ورصاصهم يلَعلْع، ما ندري مَنو مات؟ أوس حاول يدخل بيت الغريري لمساعدتهم، ضْربوه طلقة بساقه وسْحبَته زوجته وهو يْنزف، ممكن يموت!، هو جيرانهم».

«لم تصل إسعاف، اقصد إسعاف أمريكية؟ بعد ما ثأروا للضابط!».

رجل مُسن منحني الظهر يرتدي جاكيتة رصاصي اللون ودشداشة مماثلة لها، يقول بصوت مرتعب: «ابني ومَعاه أربعةْ طلاب سافروا قبل ساعة للإمتحان بمدينة الرمادي، ما أدري عبروا أو لا؟، يا رب استرنا».

أجبته: «وأبني وزوجتي كذلك، الله الستار!».

ازداد تجمع الناس في هذه المنطقة حصراً قرب بيت صادق الغريري، قريب بيت الغريري الذي قتل فيه أربعة أخوة وأعتقل الخامس، رعب وخوف، لا أحد يعلم من قتلت الإطلاقات التي لا تزال تنهمر.

تقدم الوقت وتسلّلت أشعة الشمس من بين الغيوم المتباعدة، أبواب البيوت تفتح وتغلق وفق الحاجة اللازمة القصوى، وحوالي الساعة الحادية عشرة تسلّل خبر من رجل إلى آخر، بسبسات خفية أن امرأة شاهدت من نافذة البيت أن الأمريكان أوقفوا تاكسي فيها مجموعة من الشباب وصفّوهم على مرتفع بسيط، وسلبوا نقودهم من جيوبهم وقتلوهم بالجملة... تقول هم خمسة شباب.

وصل الخبر إلى الرجل المّسن والد التلميذ، هذا الرجل العجوز اسمه بتال، تكور وصرخ بصوت يصل عنان السماء:» مات ولدي محمد، قتلوه...الله ينتقم منكم»... ولّى عائداً إلى بيته.

تسلّلت أخبار أن سائق التاكسي هو أحمد فنر وأن الطالبين الآخرين هما أخوان، خالد عيادة و ووجدي عيادة، وخامسهم أكرم حميد، تكاملت صورة التاكسي ومن بها، ولكن الحرب لا تزال في أوجها وعملية الثأر مستمرة، أصبح معلومًا حتى الآن ثمانية قتلى، ومعتقل واحد ومصاب، والحبل على الجرار.

قال أحدهم:» لا تحزنوا، الفوضى الخلّاقة وعدتكم بها كوندليزا رايز، وزيرة الخارجية، احلموا بأيّام ولا بجنة الفردوس!».

ندَّ صوت بعيد:» طز بيها.. ألف طز!».

الساعة الثانية عشرة، تيار هوائي قارص مع نثيت من المطر، لا تزال المدينة من دون كهرباء ولا نيت ولا أشارة للموبايلات، مدينة أشباح.

تسلل رجل من الجهة الشرقية عبر الحي الصناعي ووصل التجمع قرب بيت صادق الغريري وأعلن عن قتل عائلتين هناك بالجملة، ركض حمودي بدشداشته وبوجهه الأبيض المصفر صارخاً: «مَنو..ه».

أجاب: «بيت أخوك عبدالحميد».

صاح حمودي «ولا واحد خلّص؟».

– «نعم بالجملة!، فقط هبة زوجة رشيد هربتْ من الباب الخلفي وأخبرتنا بالقصة وطلبت منا ترك منازلنا والهروب باتجاه النهر، وبالفعل هربنا، وبيت يونس قتلوهم الجميع».

– متأكد؟.

– أكيد، دخلوا البيتين وضربوهم بالرصاص ورمانات يدوية، هذا ما قالته هبة زوجة رشيد.

مرت ساعات وكل في مكانه، أهالي حديثة في بيوتهم وعجلات الأمريكان تمرق من هنا وهناك، حتى حلَّ المساء ولامس الأصيل بتيار هوائي متذبذب قارص، تأكّد لأقارب الضحايا أن الأمريكان انسحبوا

فعلياً من منطقة المعركة، فاندفعوا باتجاه البيتين المنكوبين فشاهدوا حصول معركة دامية وكأن المشهد فلم سينمائي مرعب «للكبار فقط».

الرصاص الفارغ يملأ الأرض والمراوح السقفية ذابت وسالت كخيوط على الأرض بتأثير قنابل غريبة، لم يشاهدوا أياً من أقربائهم، دار مدمّرة ودماء تسيل.

ودخلوا بيت يونس ليروا ما حصل لهم، ذات الجرائم، دار مغطاة أرضها بالرصاص والدماء وشظايا قنابل، خالية من البشر.

وحين تأكد للطفلة صفا أن الأصوات التي تسمعها هي أصوات أقربائها خرجت ترتجف من تحت سريرها.

الطفلة صفا يونس التصقت تحت السرير لترى كيف قتل أهلها ولتعيش أصوات الرصاص والقنابل قربها، صفا بقيت تعدّ الساعات تحت السرير حتى بعد خروج الأمريكان، قصّت كيف شاهدت أخاها الطفل الصغير وهو يصرخ ويئن والدم ينزف من بين أصبعين في كفه الأيمن، طال صراخه فخرجت مسرعة لتفتح باب الثلاجة وتعطيه أصبع خيار وتعود تحت السرير، سردت لهم كيف صمت ولم تسمعه بعد ذلك، تأكد لها موته..

حوالي ثمان ساعات عاشت هذه اللحظات منذ الساعة السابعة صباحاً حتى حلَّ الأصيل، حينها سمعت صوت الأقرباء، صفا لم

تشاهد فلم رعب من قبل ولكنها شاهدته حياً في بيتها وما حصل لأبيها وأمها وكل أخوتها وحتى خالتها الحامل الضيفة لديهم بالصدفة.

وحين عادت عائلة الغريري إلى بيتها في مغيب الشمس لم تجد من قتلوا أمامهم وهم أولادهم الأربعة، وطلاب الجامعة الأربعة وسائقهم لم يجدهم أحد، وجدوا دماءهم فقط على مرتفع التل.

بلغ العدد أربعة وعشرين قتيلاً ثأراً للضابط الأمريكي، لا أحد يعلم أين الجثامين؟

وفي الصباح الباكر من اليوم الثاني، الشمس تخترق غيوماً متناثرة بتيار هوائي بارد، وقفت على باب الدار أشم الهواء والأخبار، كان جاري يقف على باب دارهم، صاح بي ومن دون تحية: «كل من سافر لبغداد البارحة قُتل، والجثث موجودة بالمستشفى والناس راحت تستلم الأموات».

«أكيد؟» سألته. أجاب: «نعم أكيد».

شغلّت سيارتي وأخذت معي ولدي سيف واتجهنا مسرعين لاستلام جثتي ولدي ووالدته اللذين سافرا صباح البارحة إلى بغداد، وصلت المستشفى ووجدت الناس تتجمهر هناك، على باب المستشفى عربة خضار يسحبها شاب وعليها جثمان شاب أيضاً، سألته: «من هذا». أجاب: «أحمد فنر سايق التاكسي».

سألته مرتجفاً: «سدير معهم؟». أجاب: «هناك قائمة بالأسماء».

اندفعتُ باتجاه القائمة صارخاً: «سيف فتش القتلى واحد واحد.. تأكد».

قرأت مرعوباً مفتشاً عن حرف السين أو الهاء بتلك الورقة الصغيرة:

عائلة عايد الغريري: جمال عايد، جاسب عايد، مروان عايد، قحطان عايد.

عائلة عبدالحميد: عبالحميد حسن، وليد حميد، جهيد حميد، عبدالله وليد، أسماء سلمان، خميسة طعمة، الطفل عبدالله وليد.

عائلة يونس: يونس سالم، عائدة ياسين،هدى ياسين، محمد يونس، سبأ يونس، الطفلة عائشة يونس.

ضحايا التاكسي: خالد عيادة، وجدي عيادة، أكرم حميد، محمد بتال، أحمد فنر.

اندفع سيف بشجاعة داخل غرفة الجثامين الغارقة بالدماء، وخرج مسرعاً قائلاً: «سدير وأمي سلموا». قلتُ: «غير موجودين هنا؟.. الحمد لله».

تأكد لنا سلامة سدير ووالدته، لقد وصلا بغداد سالمين ذاك الصباح المشؤوم.

(3)

وفي موكب جنائزي تراجيدي، سار أهالي حديثة بقضّهم وقضيضهم وبشعار «لا اله إلا الله محمد رسول الله» وراء أربعة وعشرين شهيداً بريئاً لا يعلمون سبب قتلهم، ماتوا وهم يجهلون قتل الضابط الأمريكي.

وفي اليوم الذي يلي هذا اليوم، كان هناك وفد من أهالي حديثة يقابلون القيادة الأمريكية وكنت بينهم، اعتبرناها جريمة كبرى وطالبنا بمعاقبة المجرم، كان الضابط الشاب الأمريكي يقف أمامنا ببزّته العسكرية المرقطة وبنجومه الذهبية الثلاث على كتفه وبوجهه الأبيض المحمر ويقول: «أنا أتحمل مسؤولية ما حصل، قُتلَ الضابط ووجهتْ النار علينا، وحصلت ردود فعل غير مسيطر عليها».

أقيمت مجالس عزاء للضحايا، لم ينس القائد الأمريكي الفرصة فزارها جميعاً احتراماً لأهل المغدورين وقال في كل منها قولته الشهيرة والراسخة في عقول أهالي حديثة بمعناها ودلالاتها: «إذا قُتل أي أمريكي بعد اليوم سيحصل لكم كما حصل البارحة».

ندَّ صوت من رجل كبير وباللهجة الغريبة على القائد: «هؤلاء وعدونا بقواطي بيرة مع الحصة الغذائية!».

ندَّ صوت من بعيد: «مشكلتهم بالمزّة».

تناقلت القنوات والصحف ما حصل في مدينتي وسميت حينها مجزرة حديثة، واستهوت تلك الحادثة السينما والدراما المحلية والعالمية، فأنتجت السينما الهوليودية فيلماً يوثّق ما جرى ذلك الصباح وضمّنت الفيلم مشاهد حقيقية عن الحادث، ولم تفت تلك الفرصة الدراما العراقية فأنتجت فيلماً تلفزيونياً تم تصويره في الأردن، وأكدت أحداث الفيلمين أن للضابط المقتول أخاً في ذات العربة.

كانت القيادة الأمريكية تنسق مع د.أياد طبيب مستشفى حديثة لإقناع أهالي الضحايا بإخراج جثث القتلى وإرسالهم للتشريح لدى الجهات الأمريكية بحجة إمكانيتهم معرفة الجنود الذين قتلوا الضحايا من خلال الرصاصات في أجسادهم، وقبول التعويضات، رفض أهالي الضحايا وطالبوا بمحاكمة عادلة لمجزرة حديثة.

وفي أبريل من عام 2008 كانت الجلسة الأولى في كامب بندلتون بمدينة كاليفورنيا حضرها شهود (د. أياد) و (د. وليد) الطبيبان في مستشفى حديثة والمضمد (جميل).

وفي الجلسة الثانية لم يحضر أحد من الجانب العراقي.....

أجريت للضابط النقيب ماكنون مسؤول المارينز في المدينة محاكمة في كامب بندلتون وحكم عليه في 24/1/2012 بالسجن لمدة ثلاثة أشهر مع إنزاله رتبة عسكرية وقال القاضي:» من المستبعد إنزال راتبه لأن لديه عائلة وكذلك من المستبعد سجنه!.

جزاك الله خيراً شاعر المدينة خلف دلف حين نسجت مخيلتك مجموعتك الشعرية لتخلد الحدث باسم» العصافيرُ تحلقُ عالياً»،

قال في بعض منها:

في ساعة الصمت والأحزان ندمان...

وكل شيء بشاطي الروح يقضانُ

وكل من كان حولي في مصيبتنا...

حتى الحروف وما في الكون سهرانُ

أنفاسنا وجع تحكي لنا وجعاً...

تروي الفجيعة للتاريخ أذهانُ

هم واعدونا وما أوفوا بما وعدوا...

وكل قولهم زور وبهتانُ

لنعد إلى حكايتنا

(1)

مرقت تلك الحادثة الأليمة كحلم، وقد أفقنا عند بيكب رزوقي والعزَيْزَة!!.

جنود تأبطوا أسلحتهم، تمترسوا خلف الأكياس الترابية، وصوبوا أفواه بنادقهم باتجاه نهر الفرات، هناك أصوات مبعثرة تسمع من أجهزة اللاسلكي.

أومأ أحدهم برأسه، اختلس نظرة سريعة، كانت واضحة المعنى، قاصدًا عشرات المكدسّين في حوض البيكب، وطالباً إخفاء أجسادهم.

حاول رزوقي الضغط على دواسّة التوقف ليتأكد من المستجدات، فأدرك كل شيء.. خبرته واسعة.

ند صوت مخنوق من أحد الجنود: «هجوم!.. باغتونا!».

تحول وجه رزوقي إلى خشبة على حين غرة، كسائق سيارة إسعاف محملة بالقتلى في أرض المعركة، هكذا أصبحت ملامح وجهه، هَمهمَ بصوت لا يكاد يفهم، آيات قرانية لا تدل على حنكة، يطفر كلمة من هذه الآية ليلصقها بالمجاورة منها.

-«يا رب برداً وسلام»، يردد، ودواسة البنزين لا تزال ملتصقة على القاع بسبب ضغط قدميه.

ورجل الدين يرفع كفيه إلى السماء مدمدماً بصوت ومن دون صوت، وزوجته تساعده بالدعاء بصوت جهوري: «يا رب خلّصنا، يا رب وصّلنا سالمين».

شباب التل المسكون والمصقوعون بالشمس، تكوّمَ أحدهم فوق الآخر، فعل ورد فعل، فسقط رأس أحدهم في حضن الآخر، ومؤخرة بعضهم على صدر الآخر، زال الصّراع الطبقي لأول مرة في التاريخ، هذه هي نهاية تاريخ البشرية كما وعدنا بها كارل ماركس، المساواة الكاملة، رأس الفلاح في مؤخّرة الطبيب، كما تعانقت مؤخّرات معتقلي «أبو غريب» عارية ك «آيس كريم بالبسكت مخروطي الشكل»، حينها قامت الدنيا ولكنها قعدت بعد أيام من ظهور هذه الفضيحة في الإعلام!

رزوقي لا يأبه بما حصل خلفه، دوّاسة البنزين لا تزال ملتصقة على قاع البيكب، عليه تجاوز سيطرة حديثة، منع التجوال حالة لا تحتاج إلى برهان في مثل هذه الأوقات.

وصلنا السيطرة، فلاحظوا هوياتنا، وبعدها ألف قبلة وتوسّل، حتى سمحوا لنا بالعبور..

«لخاطر النسوان، يالله أدخلوا»!!

حقلانية مدينة أشباح، مات أهلها منذ عام، سيارات الشرطة تجوب الشوارع، طائرات تغطي السماء وتطلق قذائفها فتهز الأرض هزاً، لا

أحد يعلم أين تسقط، خطأ الطيار ممكن فهذه حرب.. ليست «لعب جعاب، عائلة عائلتان ضحية، زَلاطة أمام قتل داعشي..».

وصلنا الجسر المشؤوم، جسر حقلانية المؤدي إلى مدينة حديثة، والذي يبكي جسر حقلان القديم المجاور له، «جسر وادي حجلان» يبكي على أطلاله، على أيام خلت، أيام الخير والحب والوئام، ماء يجري تحته خير، والشمس فوقه نور، تأمّله الناس عشقاً... الماء والخضرة والوجه الحسن، مثلث ساد تاريخه، تداعب تيار الماء سمكات صغيرة «الحروش» المتميزة بصغرها، وناديه الذي تظلله الأشجار المثمرة بمشروباته ومأكولاته وألعابه، قبل أن يُكفّر هو ورواده ويتحول إلى خرابة تملؤه خيوط العنكبوت والجرذان.

يروى أن أحدى بنات الحسين عليه السلام، سقط حجلاها في عين ماء هنا، وسمي وادي حجلان، كانت السبايا في مسيرة طويلة باتجاه الشام.

حتى أُهمل جسر حقلان هذا، والذي شيد قبل الحرب العالمية الأولى/ البناء العباسي، وظهر هذا الجسر الكونكريتي الجلد، لا حياة فيه، فيه الموت الزؤام، مكان الموت المجهول، من فقد عزيزاً عليه مراجعة هذا الجسر منذ غَبش الصبح، ليجد هنا أنواع الجثث البشرية وأنواع التشويه والتعذيب تَعرضتْ لها قبل أن تهدأ هنا.

مرَّ باص ينقل طالبات محطة كي ثري النفطية صباح يوم قاصدات مدارسهن، كانت هناك ستة أجساد ممزقة ومشوهة يعتليها الذباب.

صرخن وتقيئن مما شاهدنه.. ولا في الأحلام.. ولا في الأفلام، كل هذا حصل في عام 2005... عام مجزرة حديثة الخالدة.

وفي العام نفسه وجدت جثتى شاب مع والده ممزقتين ومتسربلتين بقطيع من ذباب، الشاب لا ينتمي دينياً لطائفة المدينة، جاء مع والده ووالدته لطلب يد فتاة هنا تعرف عليها في بغداد، واستقبل استقبالاً لائقاً من أهل البنت، وقبل تناول وجبة الغداء المناسبة للضيوف طرق الباب، خرج الكبير من أهل البيت فوجد ملثمين، قال لهم بابتسامة قلقة: «تفضلوا!».

أجابه أحدهم: «نريد ضيوفك للاستفسار فقط».

- «الغداء أمامهم!».

- «نريدهم حالاً».

حاول رب البيت متوسلاً مضطرباً وخائفاً، هو يعلم النتيجة، الأب الضيف وولده في صندوق السيارة وتركت العجوز، وبعد خمسة أيام وجدا على جسر حقلانية الكونكريتي ممزقين إرباً إربًا.

وقبل هذا الحادث بأشهر سافر الأب الحديثي مع ولده للتسوق من سوق جميلة في بغداد،، ظهر مسلحون فجأة ووجّهوا سلاحهم على صدر الولد وأردوه قتيلاً، هجم الوالد العجوز صارخاً مولولاً ليتناول ما تبقى من طلقات المهاجمين في صدره فيسقط مضرجاً بدمه فوق ولده... إنها العزَيْزَة على الدوام.

المخلوط السحري

(1)

وصلنا القاعدة العسكرية في بغداد، اتجهنا سائرين باتجاه باب الخروج، كنا نراقب بقلق حركة الطائرات والعجلات العسكرية، الساعة الحادية عشرة والنصف، عبرنا سيطرتين عسكريتين بعد تدقيق مستمسكاتنا وموافقاتهم على طيراننا، الصمت سيد الموقف باستثناء صوت المراة «لا إله إلا الله..» وصوت أرجلنا وهي تضرب الأرض بسرعة للخروج من هذه الأجواء.

دخلنا ساحة عباس ابن فرناس، والشمس تصب علينا أشعتها عمودياً من دون رحمة، غرقنا في رذاذٍ من قطرات عرق أجسادنا، ونحن نسحب حقائبنا على الأرض بجهد، ومن هناك كل مجموعة انفردت بتاكسي وفق المنطقة التي تود الذهاب إليها، ودعت أستاذ محمود وعائلته بعد أن رتبت تاكسي لإيصالهم إلى حي الحسين حيث تقطن ابنته المتزوجة هناك، واستقليّت تاكسي باتجاه جسر الأئمة، هناك يسكن أحد أولادي.

سَرحتْ كالمعتاد مخيلتي في هذا العالم المضطرب، ذهبت بعيداً إلى قسم الكيمياء في نهاية الستينيات وتذكرت كيف كنّا نفصل أنواعاً معقدة من الخلائط، وقلت بصوت أنفلت مني: «مستحيل.. مستحيل!»

سألني السائق مستغرباً: «شنو المستحيل حجي؟».

أجبته مضطراً كي لا يتهمني بالجنون: هذه الفوضى، كذب، غش، قتل، مفخخات، طلاقات نساء، مخدرات...مقابل زعيق بالقيم السامية من قبل متنفذي السلطة وأحزابها الدينية، قنواتها التي تكفر الآخر وتدعو إلى قتله، زيادة المعابد بشكل ملفت للنظر، صرف المليارات من أموال الفقراء لإظهارها بمظهر لا تضاهيه أجمل البنايات.

أجاب واثقاً: «هذا دليل ظهور المهدي المنتظر عجّل الله فرجه، وصلنا إلى قمة الفوضى والخراب!».

سألته: «والنتيجة؟».

أجاب مبتسماً فرحاً: «يحل العدل بعد هذا الجور والظلم».

«المسيح المنقذ؟» سألته محدقاً به.

«لا يا حاج، المهدي المنتظر».

«آآآه..فهمتك، سامحني».

وصلنا جامع النداء بمكبّرات الصوت الضخمة والعديدة، صوت خطيب الجامع يخترق زجاجات التاكسي المغلقة، نسيت أن اليوم جمعة!، كان يتحدث كالمعتاد عن الفوضى هذه وأين سنصل قائلاً:

«هذه علامات يوم القيامة، ستقوم الساعة وسنسير قريباً على الصراط المستقيم حفاة عراة كما خرجنا من أرحام أمهاتنا».

بدأ رأسي يؤلمني وقلت في ذاتي: «مخلوط سحري..مستحيل.. مستحيل!؟».

هل الحل كما قال سائق التاكسي بظهور المهدي المنتظر، أم بظهور المسيح المنقذ، أم ستنتهي الحياة كما يرى خطيب جامع النداء وهناك سنتفرق بين الجنة والنار؟.

وقلت: «كل يعظّم دينه... ليت شعري ما الصحيح؟».

لمتت

رواية

ميساء/ أم رميم

أم رميم التي تقف اليوم تحت خط التراجيدية الثقيلة التي لفّت بالحزن الصامت والمتسربل بابتسامة مخنوقة قد يصعب معرفة كنهها إلا لعلماء النفس الغاطسين بأعماق النفس البشرية..

تستذكر وتتحدث وكأنها تحكي قصة قرأتها وأحزنتها، قصة من هذه الأيام العصيبة التي مرت على هذا البلد، هذه الأيام التي لم يشهد تاريخ العراق منذ ردح من الزمن مثيلا لها، إذ انتشرت فيه ميليشيات متنوعة بأهداف متباينة، كل منها تراه يقتل ويسلب ويصادر ويحاكم بالعدل ولديه أمير يأمر وينهى باسم الرب!.

«أم رميم» اقتنصتُ من شفتيها كلمات وجملاً علمتني الكثير الذي غاب عني رغم طول عمري وخبرتي وقراءاتي، وجدتها قوية أقوى من الحديد صابرة أقوى من الصبر.

أم رميم ليست وحدها المنكوبة في بلاد وادي الرافدين ذاك الوادي الذي طفحت ضفتاه بضروب من دماء قانية غزيرة سُفحت من أجساد فقراء هذا البلد المحكوم بالأقوياء من رجالات الدين وأصحاب المال وسرّاقه، ممّا يؤسس استمرار الخراب، بلد قُذفت في متاهاته تلك

العظمة (العزَيزَة) بفتح الزائين مما أنتجت خراباً لا يمكن إصلاحه إلا بالعثور عليها وتحطيمها.

بيد أن أم رميم ستبقى أنموذجا يحتذى به في الصبر والصمود رغم عيشها تحت خط البؤس والحزن المخفي في جذور المخ وثناياه.

المؤلف

إهداء

إلى رميم وسيف ومصطفى وحوراء...

إلى أطفالٍ تفتحت كأزهارٍ عطرة ملونة لتوّها على هذا الوجود...

إلى أعمارٍ لم تصل بواكير مرحلة المراهقة بعد...

إلى خنساء هذا الزمن الثقيل ميساء خيري ...

أهدي لكم بوحي هذا وهمّي ونوحي الذي لا ينضب...

(1)

– «ناموا شبيكم، الليلة حفلة تعارف!، من الصبح نسافر على كركوك، ناموا عاد» قالت الوالدة.

نامي جياع الشعب نامي..

فقد حرستك آلهة الذئاب والهوام...

غدا سنرحل لديار الغربة قهراً..

تاركين خلفنا تاريخا وحسرة..

– «رميم ماما اسكتي، ورانا كعدة من الصبح والله الستار".

هكذا حالها أم رميم، بين الموافقة والرفض، استسلمت لقدرها الذي رسمه وخطّه لها زوجها وسيم حين نقل وظيفته من هذه المدينة إلى مدينة كركوك النفطية، كونه موظفاً في شركة نفط الشمال.

– «ميس، جهزّتِ حالج؟ حجي نوري يقول من الغبشة البيكب موجود على باب بيتكم"، قال زوجها مرتبكاً.

لم تجبه، حائرة بأولادها وجنينها، جهّزت بعض ما تستطيع حمله، الحاج نوري عبد اللطيف فاجأهم ليلاً بموعد السفر ولهذا

لم يترتب الحال كما ينبغي، المفاجأة والسرعة والارتباك كانت سيد الموقف حينها.

صمتٌ وظلام يلف العالم من حولهم، صمتٌ تمزقه أصوات إنفجارات وأزيز طائرات ورعب ثقيل وجوع قاتل، رجالٌ ملثمون وحاسرو الوجوه يجوبون الطرقات والأزقة ويدخلون البيوت عنوة بأرجل مدربة على كسر الأبواب الصلدة والمزاليج حجتهم التفتيش عن أسلحة ومن له ولاء لداعش.

رعبٌ وجوع وأمراض وبحر أسود تتلاطم أمواجه كي تحاصر آلاف الكيلومترات ابتداءً من ريف أبي غريب المحاذي للعاصمة بغداد إلى ريف العاصمة دمشق، كلُ هذا العالم الكبير المحاذي لنهر الفرات وصحرائها وقع تحت سطوة مسلحين مجهولي الهوية ينعتهم الناس بكلمة (داعش).

ما خلا مدينة حديثة فقد صمدت بقوة الحشد العشائري المعادي لهؤلاء الغرباء وبعض من أبناء المدينة وبتواجد العسكر العراقي ودعم القوات الأمريكية، ولهذا مُنع عنها الغذاء والدواء والسفر، ومن يمدّهم بهذا وذاك فهو كافر يستحق الذبح بسكين حادة مجهزة لقطع أية حنجرة كافرة، تقطع حنجرته ويتدفق دمه «ليعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون»، أطفال بعمر الورود درّبوا كيف يقطعون حنجرة الكافر بوثبة

سريعة محكمة التصرف والسلوك، بكلماتٍ بليغة يلقيها أحدهم منمقة بآياتٍ قرآنية يرونها تتوافق مع فعلتهم التي ستقودهم حتماً إلى جنة الفردوس خالدين فيها متمتعين بأجمل الحواري وبأقداح خمر نادرة صنعها الرب لهم خصيصاً!.

لأهل المدينة حيرة وضياع وحسرة فهم بين المطرقة والسندان، بين الخوف من سقوط مدينتهم بيد داعش وبين طيش العسكر ومن والاهم والسلطة المتجاهلة لحجم هذا الحصار وما أنتجه من احتكار للمواد الغذائية وارتفاع أسعارها إلى عنان السماء مما جعل الحصول عليها وعلى الأدوية أمراً عسيراً فسادَ الجوع والخوف والمرض متوائماً مع القتل العشوائي غير معروف الأسباب ومن وجوه ملثّمة تجعل القاتل مجهولاً والشكوى إن حصلت فهي ضد مجهول أيضاً!.

***

كان صباحاً تعيساً والشمس تنشر بواكير أشعتها على آلاف الجياع والحيارى، على متاهة لا حدود لها،، من سيُقتل اليوم ومن قَتله، من سيهرب هو وأهله وينفجر لغم ضائع تحت سيارته ليموت من يموت ويعيش مريضاً تائها حائراً من يعيش.

تكوموا داخل بيكب الحمل والتفوا حول بعضهم كما تلتف لفائف القماش في الأسواق وكما سمك السردين في علبته، في المقدمة ميساء

وزوجها وأطفالهم الذي لا يزال السهاد يكحّل عيونهم حين اجبروا على النهوض والجلوس فوق بعضهم، وعدوهم خيراً وبيتاً خيراً من بيتهم!.

وعدوهم بالتغيير والخير الوفير، هناك في كركوك سيكون القمر خبزاً والأرض زرعاً والنهر خمراً، هكذا صوّرا لهم الحال والدهم الحنون الذي غزته الأمراض مبكراً لتمتلئ جيوبه بعلاجات السكري وضغط الدم، حملها معه كما حمل زوجته وأطفاله وعيناه شاخصتان إلى أمام مخترقتان الزجاجة الأمامية للبيكب الذاهبة إلى درب طويل مجهول المعالم، يحمل همَّ عائلة كبيرة، يشاركهم الهم ذاك الجنين ذو السبعة أشهر شاعراً بجهد لم يعهده من قبل، صمتٌ يخيم على الجميع ما عدا بعض حركات الأطفال وتأوهاتهم وميلهم للنوم.

(2)

أم رميم في بواكير الثلاثينات، متوسطة القامة سمراء اللون واثقة السمات والتي مدّت سنوات زواجها بصبر مع زوجها البسيط الهادئ والحامل لمرضين مزمنين لا فكاك عنهما وهو في عزِّ شبابه.

زواجها كآلاف الزواجات في عالم هذه المدينة التي تحكمها العادات والتقاليد وقبول زواج القرابة وما يسمى بالقسمة والنصيب، تاركين الحاجات الأخرى اللازمة كي يسحقها الزمن وتعب الأطفال وحاجات العيش الصاخبة، هما مرتزقان براتبين حلالين، هي المعلمة وهو الموظف في محطة نفط ك/ 3 الواقعة جنوب مدينة حديثة ببضعة كيلو مترات.

وهي التي تتحمل واجباً آخر غير تربية أطفال المدرسة فحسب فهي تبذل قصارى جهدها لصنع أطفالها كما تهوى وتتطلع بالتربية الصالحة الصادقة وبالملابس الزاهية وبالنظافة الواجبة كأمٍ مثقفة مثابرة.

لم يكن يوما شتائياً ولم يكن ربيعياً إنما كان يوماً قائظاً ملتهبا حين بدأت هجرتهم، هكذا راحت تستعيد خبايا ذكريات رحلتها بألمٍ بالغ، سرحت بذكريات رحلة مرَّ عليها أربع سنواتٍ ونيف.

- «راح أنزّلكم بمنطقة السحل بعد وادي حوران». قال السائق ملتفتاً إلى الحاج نوري.

سأله العسكر حين وصل سيطرة الخروج من المدينة عن وجهته فأجاب:» أوصّل الجماعة لمنطقة السحل وأرجع، يريدون يهاجرون".

قال أحدهم: «الوضع خطر، بسبب هجوم داعش على قاعدة عين الأسد،».

وبعد قيل وقال أقنع السائق العسكر فرُفع عمود السيطرة لتمر (الكيّة) من تحته سالكة ذاك الطريق المرعب بخوائه وبفراغه ما خلا صدى أزيز الرصاص وصدى الإنفجارات.

قال السائق ملتفتاً إلى الحاج نوري: «سمعتْ صوت رمي طلقات مسدس قبل أذان الصبح؟»

- «لا، خير إن شاءالله؟».

- «قتلوا علوان أبن حاج محمد، يعمل حدّاد».

- «منُ قتله؟». سأل الحاج نوري بقليل من قلق.

- «ملثمين». الله يرحمه.

وبعد عشرين دقيقة توقفت (الكيّة) بطلب من نوري سائلاً إياه عن أجرته ليعود السائق من حيث أتى، لتبدأ الرحلة السرمدية باتجاه عمق الصحراء الخالية من البشر.

- «يا الله توكلوا على الله، نمشي بهذا الاتجاه أنا أعرف الطريق زين، شرقنا القاعدة الجوية/ قاعدة عين الأسد» الحاج نوري يتكلم، وهو يسير واثقاً بلحيته الكثّة وقد خطّها الشيب وبدشداشته البيضاء الخفيفة وبين أصابعه تتراقص خرزات مسبحته رصاصية اللون يقلّب بها مسبّحاً لله بحركة شفتيه الظاهرة للعيان، متحدثاً بين الحين والآخر عن مساعدته للمرضى حين يراجعون المركز الصحي الذي يعمل به، هو فرح للقائه المرتقب بعائلته المحاصرة في مدينة الموصل الساقطة بيد داعش، لم يرهم منذ مدة طويلة، وراءه طريق طويل محفوف بالمخاطر، هو سيدخل مدينة محكومة بقوانين متشددة فقد لا يسمحون له بالخروج بعد وصوله أهله، وقد يقنعونه بالانتماء لهم ويكلّفونه بواجبات قتالية وغيرها، وهذا يعني سيغيب عن عمله في مدينة حديثة وقد يفصل من وظيفته.

- «بعد شكد نوصل الكيّات؟" قال زوج أم رميم/ وسيم ربيع.

- «قريبة، أقل من ساعة» أجاب الحاج نوري.

- «حصلتْ من المواد الغذائية البارحة؟، تريلة كبيرة، يقولون مساعدات" سأل وسيم.

- «صعب، بعد ست ساعات حصلت كيلو غرام بطاطا فقط، ناس فوق ناس، نشتري من تجار الحروب!». أجاب الحاج نوري.

ساد صمت طويل وهم يشقون طريقهم بأملٍ...

- «ما ما تعبت شيليني» حوراء أعياها المسير فهي بنت السنتين لا غير».

- «صار بنتي تعالي بحضني».

ساروا بصبرٍ بالاتجاه المتوقّع لوجود وسائط النقل حوالي ساعة تقريباً، صحراء جرداء وشمس صامتة وأجواء خرساء

- «ماما عطشت أريد ماي» مصطفى بعمر الورد، خمس سنوات، بأعياء وعطش طلب من والدته.

- «أشرب وليدي شوي لأن ماينا حيل قليل، وحار».

هكذا ساروا، ومرّت أكثر من ساعة أخرى ولا يزالون يبحثون عن واسطة النقل التي ستنقذهم من مصير مجهول بين هضاب ومنخفضات

عارية من البشر وشمس تموز ترتقي سلّم الحرارة الساطعة وهي تسكب غضبها على رؤوس هؤلاء الأطفال الراحلين على إيقاع هذه الأرض الخالية من دون ماء او من قليل منه ساخن لا يروي الجسد.

ظهر التعب من طول المسير على أقدامهم والعجيب أن هؤلاء الأطفال أدركوا يقينا من عيني والدتهم أن عليهم التحمل والصبر رغم صغر أعمارهم، هم يكتمون عطشهم وتعبهم لعلَّ الأمل قريبٌ، وأمهم حائرة من تضع في حضنها ومن تتركه يسير ممسكة به متناسية حركة الجنين غير المعتادة في رحمها، أعياه جهد المسير وفقدان الغذاء .

(3)

الجدار...جدار من حجر وطين.

من أقامك هنا ولماذا.؟ ستكون ملجأً لعائلة تبحث عن منقذ لها، ستدخل التاريخ أنت وستشهد أحداثاً جساماً لن ينساها تاريخ هذه المدينة.

وقد وصلوا بعد أربع ساعات ونيف جداراً ضائعا في عمق الصحراء فأسرعوا ليستظلوا به، جدار لكنه عارٍ من أي ظل فالشمس تتعامد فوقه كما تتعامد مع كل ما حوله مسلّطة بكل جبروتها غضباً ساخناً جعلهم يسبحون بعرقهم ليمسحوه بملابسهم والصغار يدفعون بانزعاج رؤوسهم تحت أبطي الأم الحائرة بنفسها وأطفالها وأملها بان ترى واسطة نقل أو من يسعفهما بقليل من ماء أو غذاء.

- «حجي نوري ماكو سيارات شنون الحال؟ أنت قلت ساعة نوصل، شنو القصة؟» قال الأب حين شعر أن مرض السكري بدأ يطرق دماغه بأصوات وكأنها ماكنة تكسير الصخور إلى قطع صغيرة.

- «خل ننتظر شوي، لازم تجي، ياالله، وسيم نسينا صلاة الظهر». أجاب الحاج نوري بقلق حاول إخفائه، تقدم هو وخلفه برأسٍ منحنٍ وقف وسيم ليؤدّيا صلاة الظهر.

وحتى المساء الذي أنذرهم بقدوم الليل والمجهول في هذه الصحراء البعيدة عن كل عين ما خلا قليل من الطيور والحشرات.

بدأ الصبر يتراجع كتراجع جيش مكسور تتهاوي القنابل فوقه من كل صوبٍ وحدب، الكل ينظر بعينين خائفتين على الكل والأطفال الأربعة يتلوون ويطلبون الماء والعون وينظرون إلى عيون الأم والأب فلا يجدون أي عون منهما، عيون حائرة ضائعة خائفة.

الضياع الأول...

ليتخذ الحاج نوري قراره الذي وجده لا مناص منه، فقد أخبرهم قبل يوم أنه يدرك الطريق وسيوصلهم بأمان إلى مدينة هيت ومن هناك إلى بغداد، وحين وجد نفسه الآن قد لا يعلم هو ولا هم في أي بقعة من هذه الصحراء، وحين أدرك أنهم ضلّوا الطريق وابتعدوا عن الطرق الرئيسة وعن القرى والمدن، أمسى خائفاً من حلول الظلام وانتظار الهوام الجائعة والمجهول والموت من العطش..هكذا فكّر أن يقترح عليهم كي يذهب بعيداً إلى أعماق مجهولة علّه يجد واسطة نقل فقال وخرزات مسبحته تتراقص مرتبكة بين أصابعه:» راح أروح شوي بهذا الاتجاه بلكت الله يسهلها علينا ونشوف سيارة، شنو رأيكم؟»

– «توكل على الله ترا الليل راح يجينا وأحنا بلا أكل ولا ماي» أجاب الوالد والجهد قد ظهر على محياه والقلق والخوف.

– «أحتاج رميم وسيف معايا حتى ما أتعرض للقتل من قبل داعش أو عسكر، من يشوفون الأطفال يساعدوني».

– «براحتك خذهم ولا تتأخر» استسلم الأب ولم تعترض الأم على هذا القرار، هم يجدون من الحاج نوري المنقذ لهم.

هكذا أمسك الحاج نوري بيديه الاثنتين البنت رميم/ بعمر تسع سنوات وسيف الجميل/ بعمر سبع سنوات، حين يوافق الأبوان لا قدرة لهذين الطفلين على إبداء أي رأي، هكذا سار الحاج نوري بالاتجاه المعاكس للطريق والقرى باحثاً عن واسطة نقل.....

والأم تنظر بخوف وقلق وحيرة لعدم قدرتها على الاعتراض، هكذا شيّعت ولديها بنظرات منكسرة متابعة حركة ساقي سيف التعبة المصطدمة ببعضها ببنطاله الأزرق و قميصه الأبيض نصف كم وقد انفلت قليل منه خارجاً من جهته اليسرى، هو يسير مستسلماً لقدر حاكه والداه الحنونان ، لم يدر رأسه ليودع والديه بنظرة كونه لا يدرك الأشياء التي تحصل بسرعة، ولم يطلب الماء حين تأكد أنه لن يحصل عليه بعد، كان صبره يتجاوز عمره بكثير، صبر تعلمه في هذه الرحلة وهذه الصحراء الحارقة بشمس تموز، ورميم تتابع سيرها من دون ابتسامة أو رضا تلتفت إلى الخلف بين الفينة والأخرى علَّ والديها يغيران رأيهما، ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة، رميم كبيرة وتعي ما حصل وما قد يحصل،

ذهبت ممسكة يد الحاج نوري من الجهة اليسرى غير عابئة بالأتربة التي لوثت تنورتها حمراء اللون وقميصها المطرز بشتى الألوان بنصف كم، تجهش وترتجف بصمت وتلتفت إلى أخيها سيف لتطمئن على صبره وقبوله لما يحصل، هي الكبيرة وعليها الصبر وتشجيع سيف.

الثلاثة يشقّون طريقهم إلى المجهول الغائب البعيد، حتى الحاج نوري كان يتصرف وهو عارف بأنه فقد البوصلة وتعاظم إحساسه بالتيه والمجهول المرعب وهذا الإحساس خيم على صدره وأثقل عليه، هو الضياع الأول لا غير...وتستمر الحكاية.

(4)

حلَّ الظلام...

نوري والطفلان لم يعودوا، الوالد ذهب في غيبوبة بتأثير السكري وضغط الدم، وبقيت أم رميم تقلّب طفليها مصطفى/ 4 سنوات وحوراء/ سنتان، هما يطلبان الماء والغذاء، بدأ جسداهما يجفّان تدريجياً بتأثير حرارة تموز وفقدان الماء والتعرق المستمر، يتقلّبان وتصدر منهما أصوات متلعثمة تعبة لاهثة، والأم ترقب أي صوت يصدر من أعماق الظلام ليعلمها بسلامة رميم وسيف، وهي حائرة كيف تعالج ظمأ وتعب طفليها، فحالفها الحظ حين رأت بول مصطفى يتدفق منساباً فوضعت إناءً معدنياً كان معها بين ساقيه كي لا تخسر تلك القطرات الثمينة، وبالفعل جمعتها بحرصٍ وهمّت كي تلبي رغبة حوراء الصغيرة لتنقذها من نهاية أكيدة، هذا البول عطاء ربّاني، فمدّت يدها ووضعت حافة الإناء بين شفتي الطفلة ونكسته قليلاً قليلاً كي ينساب بهدوء ومن دون خسائر.

فتحت حوراء فمها بحركة هزّت كل جسدها، وحين انساب بول مصطفى بين شفتيها واستطعمته تقلصت بطنها وارتجف كل جسدها

لتبصقه خارجاً كي يبلل ويلوث يد أمها وملابسها، حوراء رفضت شرب بول مصطفى كي لا تبقى حيلة للأم.

الأب يشخر بشخير ذي ذبذبات ونغمات مبعثرة تظهر مرضه وجهده، والأم تقود المعركة وتفكر ولا تدرك كيف ستعالج صراخ طفلين وضياع طفلين، هي تنتحب وتضرب على الأرض بقوة هاتفها وهاتف زوجها الخاليين من الرصيد، وحتى هاتف الحاج نوري، لماذا ثلاثة هواتف من دون رصيد، لم يكن موجوداً في المدينة بسبب الحصار؟ أم هذه الرحلة لم يهيأ لها شروط رحلة بصحراء عارية سيراً على الأقدام بشمس تموز، رحلة بقليل من ماء ساخن ومن دون غذاء ومن دون أرصدة لهواتفهم تعينهم في وقت الحاجة.

العصفوران..أرواحكما

حتى حطَّ عصفوران قرب الطفلين مصطفى وأخته حوراء، يتقافزان هنا وهناك، الطفلان في عالم آخر هو عالم مجهول الدواخل لأي عالم نفسي يروم استكشاف معاناة طفلين في هكذا ظروف، لكن الأم هي الوحيدة القادرة على إستكناه أسرار ما يحصل في دواخل أجساد أطفالها من انفعالات.

أدركت الأم بجزع لماذا حلَّ هذان الضيفان، فقالت بصوت مرتجف جاهش فارشة راحتيها بالعة الغصة في حنجرتها:» تعالا قربي رميم

وسيف، أيها العصفوران أنتما روحا ولدي، الآن تأكد لي موت ولديَّ اللذين سلمتهما للحاج نوري برضاي ورضا والدهما، سيحاسبنا الله على فعلتنا، هل الذئاب تتمتع الآن وتتلذذ بلحمهما الغض، هل تصرخ رميم حين ترى الذئب ينهش جسد سيف قبل أن ينتقل إليها؟، ماذا حصل لهما؟، كيف لي أن أتخيل ما حصل وما يحصل لهما؟».

(5)

صباح اليوم الثاني 24 / تموز/ 2015

بزغت شمس تموز ثانية على أم رميم الخائرة ليرنَّ هاتفها الخالي من الرصيد، مدّت يدها لاهثة متعبة منهارة، من عطشها وجوعها فهي لم تلامس شفتيها قطرة ماء أو غيره منذ خروجها من بيتها قبل يوم وفي غَبش الصبح، كما هي سلّمت سيف ورميم في مساء البارحة للحاج نوري ولم يعودا حتى الآنّ! وطفلاها يزحفان باتجاه الموت بتؤدة، أما الأب فقد أيقظه صراخ أم رميم وهي تجيب أمها.

والدتها على الخط، أم ليث تطمئن على سفرة/ أم رميم، ابنتها/ ووصولها إلى مدينة هيت أو تجاوزها، هكذا بدأت أم رميم تصرخ وتولول طالبة النجدة من والدتها:» يوم أحنا ضايعين، أمّي ما ندري وين نروح، رميم وسيف ضاعوا همَّ وحجي نوري من البارحة، أمّي مصطفى وحوراء راح يموتون من العطش».

هذا هو القليل مما قالته أم رميم لوالدتها، تتحدث بحالة من هستيرية نادرة وغريبة الوصف، من إنسان يدرك أن موتاً محققا يحاصره حصاراً

مقيتاً، كحصار يضاهي ويزيد كثيراً عن حصار رجلٍ في زنزانة وقد أُبلغ بساعة إعدامه، هذا الرجل مطمئن على أولاده وزوجته، لا بل سيلتقي بهم ليودّعهم ويوصيهم خيراً ويقول ما يود قوله، لكن أم رميم تشرف الآن على موت الجميع ثم تتبعهم لاهثة نادمة خائرة والأهم من كل هذا وذاك فهي وحيدة في صحراء جرداء، في مكان لم تحلم يوماً أن تراه!، هي ستخسر في النهاية حتى القبور التي ينعم بها معظم البشر، لا بل ستتمتع بلحومهم الهوام الجائعة في صحراء خالية من الناس.

وبعد لهاثٍ وكلام بالهواتف التي جاءت متأخرة من والدتها ووالدها ووالد الزوج/ وسيم المتسربل بالسكري والضغط، اقترحوا على وسيم/ زوجها أن يتجه إلى وادي حوران الواقع غربهم بمسافة مجهولة علّه يجد من يساعده وينقذ من ينقذه..

اتجه خائر القوى محني الظهر ملبياً نصيحة والده باتجاه وادي حوران الذي يجهل مكانه.. ذهب وزوجته ترقبه باحثة عن أمل تائه في هذه البراري الواسعة، أمل لم يعد يسيراً، ذهب وما هي إلا دقائق ليغيب وسيم ولم تره بعد زوجته، غاب ولا سراب من أمل بعودته.. الضيعة الثانية هذه...

نعم الضيعة الثانية لتبقى أم رميم وقربها طفلان يسيران بثقة أمام عينها باتجاه الموت.

حديث والدة أم رميم لم ينقطع مع ابنتها وبعد علمها بغياب وسيم نصحتها بالاتجاه إلى القاعدة الجوية معتمدة بمسيرها على البالون الذي يرفرف فوقها.

بدأت أم رميم تسير مراقبة البالون حاملة حوراء وتسحب مصطفى المنهار سحباً بيدها اليسرى، وكأنها طائر طريد يعبق برائحة الموت، القاعدة ليست قريبة منها، أمامها بضعة كيلومترات في صحراء غير مستوية مليئة بالصخور والهضاب وغيرها، رحلة تبقي لها قليلاَ من أمل، تسير متسربلة بشمس بدأت ترتقي الأعالي وهي تفرك الأرض بلحم قدميها من دون حذاء، تسحب نفسها ونفَسها سحباً لاهثة غير قادرة على النطق أو البكاء، كل شيء فيها يسير باتجاه النهاية المجهولة والغائمة بغيم أسود ثقيل.. باتجاه الضيعة الثالثة والأخيرة...

(6)

الضيعة الثالثة والنهاية الأخيرة...

علم ضابط القاعدة الجوية برحلة أم رميم باتجاههم، استطاعت والدتها بمساعدة جيران لها بالاتصال بالقاعدة وأعلامهم أن امرأة حاملاً وطفليها متجهون إليهم. هو يرقب الطريق بحذر، هل هي فعلاً ضائعة تنشد المساعدة أم عدوة مليئة بالمتفجرات تروم تفجير نفسها؟

مرت أكثر من ساعة، يسقط مصطفى على الأرض، تنحني وتسحبه بيدها اليمنى العاجزة، محطمة القوى، يسقط مرة أخرى وتعود ثانية لتسحبه، تحاول عبور منحدر عثر، تهوي على الأرض فيسقط الجميع فوق بعضهم وعلى صخور مدبّبة فيسيل دمٌ من أنفها ويتلوث فستانها البهي بألوانه الزاهية فتصرخ:" أبوية راح نموت، أمي وينج؟»، تنهض وتسير بعد أن ترتب حال طفليها، ويتكرر هذا المشهد وهي مصرّة على الوصول ناسية همّها وهي تلهث ونفَسها يسمع من بعيد.

حتى أصبح في ميسورها رؤية سياج وباب القاعدة الجوية، لتظهر أم رميم للعيان وفي حضنها طفل واحد فقط، وقبل وصولها انهارت كل قواها مما اضطر ضابط الخفر من الاقتراب منها يرافقه بضعة من

جنوده، وحين وصلوها استطاعت إخبارهم بأن طفلها مصطفى سقط فعجزت عن حمله فقالت بصوت بالكاد أن يسمع:» هناك ابني وقع، مصطفى»، مؤشرة بسبّابتها باتجاه مكان سقوطه ولم تستطع الاستمرار بكلامها، فقد أغمي عليها.

في حضنها كانت حوراء بفستانها الوردي المزخرف بألوانٍ زاهية من الورود وقد لفضت أنفاسها الأخيرة قبل وصولها باب القاعدة، هي تعلم وقد لاحظتها وهي تنفخ آخر نفس لها لتتدلى رقبتها الغضة من دون حراك، ليبقى آخر أمل للأم في نهاية هذه الرحلة هو مصطفى لا غير.

اتجه ضابط الخفر مع جنده بالاتجاه الذي أشارت إليه أم رميم، وبالفعل بمسافة ليست بعيدة وجدوا الطفل مصطفى مكبوباً على بطنه وقد لمعت شعرات رأسه المجعدة السوداء بأشعة شمس تموز، وعيناه نصف مغمضتين، كان مكبوباً ببنطاله الأزرق على أرض حارقة ، بنطاله القصير/ فوق الركبة، وقميصه الوردي المطرز بطيور حبٍ رافعة أجنحتها تروم التحليق عالياً، حمله أحد الجنود بيديه قارئاً بصوت واطئ صورة الفاتحة كدلالة أكيدة على وفاته.

نُقلت أم رميم من قبل العسكر إلى مخيم يحوي عائلة وسقيت بقطرات ماء وفاقت من غيبوبتها لتسأل عن مصطفى وحاله، سألت

عن زوجها وعن الحاج نوري وولديها اللذين غادراها معه، تسأل عن الجميع والعسكر هناك يطمئنونها خيراً.

استشعرت حركة الجنين في رحمها بعد أن انزلقت قطرات الماء إلى جوفها بعد سكونٍ طويل، هو حيٌّ وتجاوز محنة هذه الرحلة مرعبة النهاية.

وصلت أمها ووالدها ووالد الزوج وسيم إلى قاعدة عين الأسد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فعادت معهم إلى بيتها بسيارة نوع بيكب وهي تصرخ وتسأل عن مصير الجميع وهم يطمئنونها، ولكن بلحظة غير محسوبة أدارت رأسها إلى خلفية البيكب لترى خلفها كيسين أسودين يلفّان مصطفى وحوراء.

وبهذا فقدت أم رميم في رحلتها هذه كل أولادها(رميم وسيف ومصطفى وحوراء) وفقدت زوجها.

أقلعت الطائرات السمتية مفتشة عن الضائعين وهم (الحاج نوري جيران العائلة والطفلين اللذين كانا معه وهم رميم وسيف) وكذلك عن الوالد وسيم الذي ضاع باتجاه آخر في هذا الصباح. ولكن للأسف لم ولن يعثر على أي منهم، لا يعرف مصيرهم ولكن المتوقع أنهم كانوا فريسة للهوام الجائعة.

***

فإذا كانت السماء قد استقبلت أولادها الأربعة جميعاً مخلّدون بالجنائن، كيف ستستقبل والدتهم هناك كي تستكمل بهجتها بهم وتكمل مسيرة تربيتهم كما رسمت في مخيلتها قبل هذا القدر المشؤوم، والدتهم هذه الثكلى المفجوعة بفقدانهم.

كانت فرحتها بولادة كل منهم سراباً لا يُتخيل وحلماً انتُظر طويلاً وأجهدها كثيرا كي توصلهم إلى تلك الأعمار، ولكن فقدانهم جميعاً بيوم واحد وهي ترقب كلٌ منهم كيف سيموت ومتى؟ تلك هي الحقيقة الدامغة التي لا مناص منها إذ تمسي أم رميم من نوادر الأمهات التي حصل لها مثل هذا الحدث المرعب وكأنها خنساء هذا الزمان، الخنساء التي فقدت أربعة من أولادها في معركة القادسية..

وهي اليوم تتمتع بتربية أطفال الصف الأول الابتدائي لتعوّض ما خسرته من حنان الأمومة، ولتقضي وقتها في البيت بمتابعة طفلها ذي السنوات الأربع الذي كان في رحمها بعمر سبعة أشهر في الرحلة التي حصلت بتاريخ 23/ تموز/ 2015 ، وما يتبقى من الوقت في بيتها تقضيه جالسة في غرفتها مثبتة بصرها على الجدار الجانبي الذي يحوي شباكين مغطيين بستارتين مزخرفتين بشجرتي ليمون كبيرتين تمتد أغصانهما لتنتهي بنهاية الستارة، وعلى أغصانها المخضرّة طيور ملونة بألوان عدة زاهية قسم منها ساكن هادئ وقسم آخر يتقافز أو محلّق فوق الأغصان.

وبين الشباكين على الجدار صورة مؤطرة بإطارٍ وردي اللون ومزججة، وخلف الزجاجة يظهر شاب نحيف حنطي اللون مبتسمٌ فرح بزواجه ببذلةٍ سوداء وقميص أبيض تزينه من الأعلى ربطة عنقٍ حمراء، هو وسيم زوجها رحمه الله، وإلى جانبه هي تجلس ببذلة عرسها الواسعة مغطية بعض بلاطات أرض الغرفة، سيماء وجهها يعبر عن بهجتها بيوم عرسها وهي تنظر إليه بعينين مكحّلتين بما يتناسب ولون بشرتها.

وبجانب هذه الصورة صورة أخرى تبدو أكبر منها بقليل مؤطّرة بإطارٍ خشبي جوزي اللون ومزججة بزجاجٍ أكثر لمعاناً من الأولى، ترى الزوجين يجلسان على طرفي بساط مخطّط وملون وبملابس خفيفة صيفية، وبينهما ببذلاتٍ زاهية الألوان دالّة عن يوم ربيعي أولادهما الأربعة رحمهم الله (رميم وسيف ومصطفى وحوراء)، الصورة لسفرة ربيعية على ضفاف أعالي نهر الفرات لم تكن قديمة الزمن، وأمامهم أنواع من الأغذية والمشروبات تتوزع على قطعة مطاطية فوق رمل الشاطئ، هكذا تقضي الكثير من وقتها في البيت تحدّق بهذين المنظرين إضافة إلى البوم لصورٍ أخرى عديدة لهذه العائلة التي دخلت تاريخ هذه المدينة.

وحين يحلُّ الليل، وبين سهادها ونومها وأحلامها تراها تقضي لحظاتٍ سعيدة مع أولادها، تلاعب الصغار وتعلّم الكبار وتغني لهم أغانٍ عودتهم حين ينصتون إليها يذهبون في وسن ثم يغرقون في نوم عميق.

وفي كل ليلة اعتادت والدتها أن تقفز لتمسك كتفي ابنتها وهي تصرخ بفزعٍ، تهزهما وتردها على صدرها مرددة بصوت جهوري: «باسم الله الرحمن الرحيم، اسم الله عليك ميساء».

تقص لها ما رأت من كوابيس أحلام مرعبة، هي رأت مجموعة الذئاب تهاجم فاتحة فمها مكشرة أنيابها ولديها رميم وسيف، وكيف قفزت جاعلة من جسدها درعاً لتكون هي الضحية ناقذة قرّة عينيها.

وبين أحلام تراقص بها أولادها وأخرى تصرخ فزعة تجدها تغرق في أضغاث أحلام، هكذا كانت تعيش ليلها الطويل لتستيقظ تعبة منهكة.

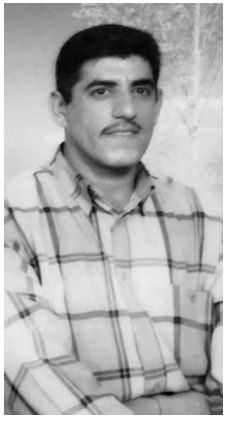

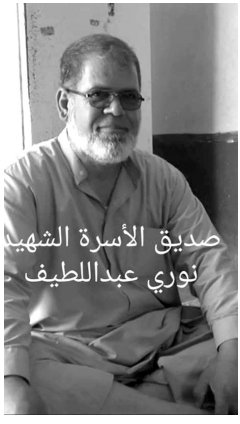

لمّت